مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

مكتبة الأسرة

القدس

الفتح الإسلامى • الغزو الصليبى • الهجمة الصهيونية

عبد الحميد الكاتب

الأعمال الخاصة





الهيئة المصرية
العامة للكتاب

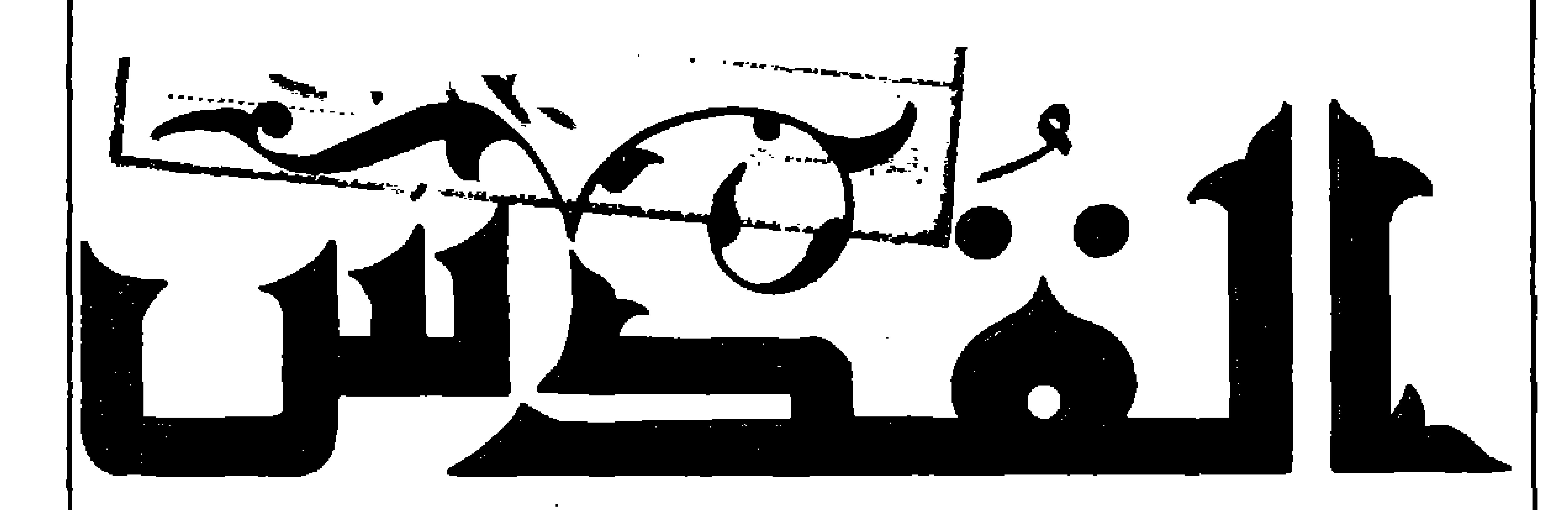

القدس

طبعة خاصة
تصدرها دار الشروق
ضمن مشروع مكتبة الأسرة

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

عبد الحميد الكاتب



القدس

☪ الفتح الإسلامى
✝ الغزو الصليبى
✡ الهجمة الصهيونية

دار الشروق



مهرجان القراءة للجميع ٩٨
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الخاصة)

القدس
الفتح الإسلامي - الغزو الصليبي - الهجمة الصهيونية

عبد الحميد الكاتب

الإشراف الفني :
للفنان محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الناشر :
دار الشروق

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان



عبدالحميد الكاتب

- □ اسمه عبدالحميد عبدالغنى ولد عام ١٩١٨ بالشرقية، وحصل على بكالوريوس التجارة عام ١٩٣٨ وواصل الدراسة فحصل على دبلوم معهد الصحافة وعلى الماجستير فى العلوم السياسية من جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة.
- □ عمل سكرتيرا لتحرير مجلة «الهلال» من عام ١٩٣٨ - إلى عام ١٩٤٠، وبمراقبة الثقافة بوزارة المعارف حتى عام ١٩٤٨، ثم التحق بوزارة الخارجية من عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٦٢.
- □ مارس الكتابة إلى جانب عمله بوزارة الخارجية باسم عبدالحميد الكاتب وصدر له العديد من الكتب أشهرها «دراسات عن مصر والمصريين» و«خطرات نفس مسلمة» و«قصة التعاون الدولى» وترجم رواية «مزرعة الحيوانات» لجورج أورول.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم :

﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ .

[سورة الإسراء]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد . . المسجد الحرام . . ومسجدى هذا . . والمسجد الأقصى » .

والمسجد الأقصى هو أولى القبلتين . . وثالث الحرمين الشريفين .

وعن ابن عباس رضى الله عنه :

« البيت المقدس بنته الأنبياء ، وسكنته الأنبياء ، ما فيه موضع شبر إلا وقد صلّى فيه نبى أو قام فيه ملك » .



موضوعات الكتاب

مقدمة الكتاب

فتح صلاح الدين الأيوبى بيت المقدس ، وانتزعها من أيدى الصليبيين ، وأزال « مملكة بيت المقدس » ، التى أقاموها فحكمت القدس وما جاورها من بلاد فلسطين . وعادت القدس ، بعد ثمان وثمانين سنة من الحكم الصليبى ، مدينة إسلامية ، كما كانت منذ عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

حدث هذا فى سنة ٥٨٣ هـ . ولو كان التاريخ حينذاك يكتب بالتاريخ الميلادى ، ولو كانت الحروب والمعارك تسمى بأسماء الشهور والسنوات التى وقعت فيها ، لسميت معركة صلاح الدين هذه « معركة أكتوبر » . . فقد دخل الفاتح الإسلامى العظيم المدينة المقدسة يوم ١٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م .

وكان فتح بيت المقدس نقطة التحول فى مجرى الحروب الصليبية ، فبعد أن كانت الغلبة للقوات الصليبية ، التى زحفت من أرجاء أوروبا ، مؤلفة من مئات الآلاف من المحاربين ، خرج عليهم صلاح الدين من مصر بجيش قوى مؤمن مستبسل ، فخاض المعارك واحدة إثر أخرى ، وظهر على الصليبيين ، وانتصر . فأخذت موجاتهم تنحسر ، وولت قواتهم ترتد وتتراجع ، ثم راحت تنسحب من كثير من البلاد التى فتحوها وحكموها واستوطنوا فيها .

ومضى صلاح الدين إلى ربه ، بعد أن أثبت فى سجل التاريخ ، بما ملأ قلبه من إيمان وما أبدى من شجاعة وحكمة ، أنه البطل الذى ظهر من بين المسلمين فى فترة من أظلم فترات التاريخ الإسلامى ؛ فبث فى المسلمين من روحه ، وكون لهم جيشا حارب وهزم ثلاثة جيوش أوروبية كبيرة : جيشا ألمانيا يقوده فردريك الثانى ، وجيشا فرنسيًّا يقوده فيليب الثانى ، وجيشًا إنجليزيًّا يقوده ريتشارد قلب الأسد .

مات صلاح الدين ، فورث أبناؤه وأقاربه الإمبراطورية الإسلامية الفسيحة التى كونها ووحدها ؛ فأخذ كل منهم جزءًا ، ونصب نفسه ملكا أو أميرًا عليه . وكانت مصر ، وهى أكبر وأهم أجزاء تلك الإمبراطورية ، من نصيب أخيه الملك العادل سيف الدين . ثم من نصيب ابن أخيه الملك الكامل ، الذى حكم مصر من سنة ١٢١٨ إلى سنة ١٢٣٨ . وكانت القدس أيضًا من نصيب الملك الكامل ، منذ تركها له إخوته ؛ فهو أقدر منهم على حمايتها من الصليبيين ، الذين مازالوا يريدون أن يثأروا لهزيمتهم أمام صلاح الدين ، ويريدون أن ينتزعوا المدينة المقدسة من أيدى المسلمين .

وانصرف كل ملك وكل أمير إلى مملكته الصغيرة ، يحكمها ويستغلها ويحاول أن يوسع رقعتها ، ونشبت الخلافات بينهم وبين جيرانهم من الحكام ، وبينهم وبين أنفسهم أيضًا ، وكان أمرهم فرقا ؛ فنسوا جميعا أن الخطر الصليبى مازال ماثلا ، وأن الصليبيين مازالوا معتصمين بعدد من القواعد والثغور فى الشام ، وأنهم يدعمونها استعدادًا ليوم يستأنفون فيه الحرب ، ويثأرون لهزيمتهم ، ويعودون إلى القدس .

وقد أدرك الصليبيون ، بعد هزيمتهم أمام صلاح الدين ، أن مصر هى مصدر الخطر الحقيقى عليهم ، وأن المسلمين لم ينتصروا إلا بعد أن

اتحدت مصر والشام ، وانفتح الطريق بينهما ؛ فخرج صلاح الدين بجيشه من مصر ، وزاده جنودًا وعتادًا خلال مسيرته فى الشام ، فكون جيشا إسلاميا قويًا ، انهار أمامه الجيش الصليبى . .

وقرر الصليبيون أن يعدلوا خططهم الحربية . . وأن يبدءوا بغزو مصر وضربها وعزلها ، وأن يفصلوا بينها وبين الشام وفلسطين . . فإن نجحوا فى هذا ، سهل عليهم أن يستردوا القدس ، وأن يحكموا فلسطين والشام، وأن يغزوا بلاد المسلمين جميعًا .

وسارت سفنهم من موانى إيطاليا ، فعبرت بهم البحر وأنزلتهم على شواطئ مصر ، فاحتلوا دمياط ، ثم أخذوا يزحفون إلى القاهرة . .

وحاول الملك الكامل أن يصد زحفهم ، وأن يسترد دمياط . . واستنجد بإخوته وأبناء عمه فى الشام ، فلم ينجدوه . .

وفكر الملك الكامل فيما يصنع . . وهداه تفكيره إلى أن أسهل الطرق وأقصرها ، هى أن يحالف الصليبيين أنفسهم . . فأرسل إلى كبيرهم ، فردريك الثانى ، يعرض عليه أن يجلو الصليبيون عن مصر مقابل أن يتنازل له الملك الكامل عن بيت المقدس ، ومملكة القدس التى كانت تشمل معظم فلسطين .

ورحب فردريك بهذا العرض السخى ، الذى يستولى به الصليبيون على بيت المقدس ومملكته دون حرب ودون عناء . .

ولكن فريقا من الصليبيين رفضوا هذا العرض ، وقالوا : لماذا لا نأخذ مصر أولا ، وبعد هذا نأخذ بيت المقدس . . ثم نزحف فنأخذ الشام كله ؟ . . وكان البابا فى روما على هذا الرأى المتطرف ، فأعلن سخطه على فردريك الثانى ، أو تظاهر بإعلان هذا السخط ، ليقوى جانب

أولئك المتطرفين الذين يريدون أن يلتهموا العالم الإسلامى كله ، قدسه ومصره وشامه ويستذلوا المسلمين جميعًا ! . . وبهذا يحققون غرضهم الدينى بالاستيلاء على القدس ، ويحققون أغراضهم المادية بالاستيلاء على بلاد المسلمين وخيراتها !

ولعلها كانت مسرحية ، قسم فيها الصليبيون أنفسهم فريقين : فريقا يرضى بالمهادنة والصلح ، وفريقا يريد أن يمضى فى الحرب والقتال . . وتغلب الفريق الثانى ، واستأنف الصليبيون القتال ، وحاولوا أن يخرجوا من دمياط ، ويزحفوا إلى القاهرة . وعندئذ ، لم ير الملك الكامل بدا من أن يحاربهم . . واستطاع فعلا أن يخرجهم من دمياط ، وأن يردهم إلى سفنهم يركبونها ويعودون إلى أوروبا . . ولكنهم كانوا قد أعدوا عدتهم لغزوة أخرى لمصر ، لا يكون جنودها من بحارة جنوة وموانى إيطاليا فحسب ، بل بجيش قوى يقوده إمبراطور ألمانيا فردريك الثانى .

عندئذ ارتجف الملك الكامل . . وتخيل عرشه مهتزًا يريد أن ينقض . . فعاد مرة أخرى يلح على الصليبيين أن يقبلوا عرضه السخى ، فيتركوا مصر ، ويأخذوا القدس . .

وقدر الملك الكامل أن رعاياه المصريين سوف يستريحون إلى هذا الاتجاه السلمى . . وأنهم سوف يلتفون حوله ، ويتحمسون لسياسته التى ترمى إلى فض النزاع دون حرب تهلك حرثهم ونسلهم . . وكان المصريون قد تعبوا فعلاً ، وملوا فعلاً ، من تلك الحروب الطويلة التى جرت أيام صلاح الدين فى أرجاء فلسطين والشام . . ثم فى دلتا النيل وعلى شواطئ مصر .

إن حروب صلاح الدين اقتضت إعداد جيش كبير إعدادًا كاملاً . وكان من الطبيعى أن يعتمد سلطان مصر على موارد مصر قبل غيرها من

البلاد . . فكانت مصر هى مصدر تزويد الجيش وتموينه . . وقد كرست محاصيلها وخيراتها للجيش الضخم الذى تألف من الآلاف من أقوى العناصر فى العالم الإسلامى . . وخاصة من الأكراد ومن الأتراك الذين كانوا هم عماد جيش صلاح الدين . . وكانت معهم أيضا عدة آلاف من المصريين ، ولكنهم كانوا يقومون بما يتطلبه الجيش من خدمات وأعمال . . وربما كان هذا من أسباب ضيق المصريين أيضًا بتلك الحروب التى طالت سنين وسنين .

كل هذا أرهق أهل مصر إرهاقًا شديدًا ، وضاق شعب مصر ضيقًا جاوز حدود الصبر ، ورأى أن الحرب قد استنزفت موارد بلاده وخيراتها . . فحلت المجاعة بهذا البلد الخصيب ، وكانت مجاعة رهيبة تحدث عنها المؤرخون .

وتسلطت فكرة مهادنة الصليبيين على رأس الملك الكامل . . وقرر أن يتنازل عن القدس للصليبيين . . وأن يعقد معهم معاهدة صلح وسلام . . هى معاهدة يافا التى وقعت يوم ١٨ فبراير ١٢٢٩ ، وتسلم الصليبيون القدس ، واحتلوه ، ورفعوا عليه الصليب . .

وترامت الأنباء إلى أنحاء العالم الإسلامى . . وأحس المسلمون بالفجيعة الأليمة أينما كانوا . . وأقيمت الصلاة فى المساجد ، فارتفعت أصوات الخطباء من فوق المنابر تلعن السلطان الكامل ، وارتفعت أيدى المصلين تدعو الله أن يدرأ عنهم هذا البلاء . . وتعاطف حكام المسلمين فى شتى البلاد مع مشاعر شعوبهم ،فسبوا السلطان الكامل وقاطعوه ونبذوه .

ولم تمض على هذا بضع سنين ، حتى كان المصريون أكثر المسلمين سخطا على ما جرى . . فانبعث من بينهم صلاح الدين من جديد . .

وكان هذا البطل الجديد ، هو الظاهر بيبرس ، الذى خرج من مصر على رأس جيش كبير قدروه بأربعين ألفا من الفرسان ومائة ألف من المشاة . وسار الظاهر مبتدئًا بغزة ، وقاصدًا مدن الشام ومدن فلسطين ، فخلصها واحدة واحدة من أيدى الصليبيين وما حالفهم من قوات المغول، التى كانت قد زحفت هى الأخرى على بلاد المسلمين . . وتعاهد المغول والصليبيون معا فى حرب المسلمين .

وظلت الحرب دائرة على أشدها طوال عهده ، ومن بعده فى عهد قلاوون سلطان مصر ، حتى سقط آخر معقل من معاقل الصليبيين ، ونزحت آخر فلولهم فى سنة ١٢٩١ ، فكانت هذه هى خاتمة الحروب الصليبية التى دامت قرنين من الزمان .

خلال القرن الأول من هذين القرنين ، سيطر الصليبيون على العالم الإسلامى ، وتهاوى أمامهم الحكام المسلمون جميعا . . وقبع خليفة المسلمين العباسى فى بغداد خائفًا مرتعدًا ، وقبع خليفتهم الآخر الفاطمى فى القاهرة مترهلا متواكلا . . وراح الحكام الصغار يحاولون اتقاء شر الصليبيين بالتهادن والتحالف ، ويستعينون بالصليبيين الأوروبيين والمسيحيين البيزنطيين ، ويستنجدون بهؤلاء وهؤلاء فيما ينشب بين المسلمين من صراعات ومعارك . .

وكان الكامل أبرز هؤلاء الحكام المتهاونين ، رغم أنه سلطان أكبر بلد إسلامى ؛ فهو ليس « أتابك » حلب أو صاحب الموصل كما كانوا يلقبون الحكام والأمراء فى ذلك الوقت . . بل هو سلطان مصر ، وهو وريث صلاح الدين . .

وأغرب من هذا ، أن الملك الكامل تهاوى أمام الصليبيين ، وراح يسعى إلى محالفتهم ، ثم تنازل لهم عن القدس مقابل وعد بذلوه له . .

فعل هذا بعد أن كان قد حارب الصليبيين ، وانتصر عليهم بفضل من الله ، وبخطة لم يضعها هو ، وإنما وضعها المصريون عندما فتحوا سدود الترع والقنوات فى الدلتا ، فأغرقوا الصليبيين واضطرت فلولهم إلى الفرار من مصر . . ولكن انتصاره على الصليبيين زاده خوفا منهم . . فتنازل لهم عن القدس ، مقابل وعد بذلوه . وقد أخذ الصليبيون القدس واحتلوها ، ثم عادوا بعد تسع سنوات إلى غزو مصر بجيشهم وأسطولهم . .

وكانت هذه هى نهاية العرش الأيوبى ، الذى ظن الملك الكامل أنه يحميه بمحالفة الصليبيين ! . . ذلك أنه أخطأ خطأ جسيما ، بل ارتكب خطيئة كبيرة ، حين دخل مع الصليبيين فى معاهدة صلح وسلام ، وهو يعلم أو لا يعلم أنهم لا يريدون صلحا وسلاما .

وقد سجل التاريخ خطيئة الملك الكامل فى صفحة باهتة تافهة . . بينما سجل بطولات صلاح الدين ، وبطولات الملك الظاهر ، فى صفحات ناصعة بيضاء ، بقيت تراثا لنا ، يشد العزائم كلما وهنت ، ويبعث الأمل والضوء كلما ساد اليأس وأظلمت الدنيا .

وكثيرًا ما يعيد التاريخ نفسه : فى مراحله ، وفى مواقعه ، وفى شخصياته . فلنقرأ هذه القصة ، ذات العبرة وذات المغزى من أولها .

فلنقرأ القصة من أولها . . إنها قصة « مسيرة الإسلام إلى القدس » . . تلك المسيرة التى بدأت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . عندما هداه الله سبحانه وتعالى إلى أن يتطلع إلى المقدس الشريف ويتجه إليه ، حتى عندما كان مهاجرًا وقبل أن يفتح مكة . . ثم أرشد الله عز وجل خليفته الراشد الأول أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، فسيّر جيشا إسلاميا فى اتجاه القدس . . ثم أتم الله تبارك وتعالى نعمته ، فأرشد

الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فسار بنفسه على رأس جيش المسلمين حتى وصل إلى القدس ، ثم دخلها سلماً ، وتسلَّم مفاتيحها من أسقف المدينة التى صارت منذ ذلك الوقت مدينة إسلامية، يشد الرحال إلى مسجدها الأقصى ، رغم ما توالى عليها فى الأزمنة السيئة من غارات صليبية ، ومن غارات صهيونية .

فلنقرأ أولاً قصة « مسيرة الإسلام إلى القدس » .

الفصل الأول

مسيرة الإسلام إلى القدس

١ ـ معركة الشهداء ..
فى سبيلهم إلى القدس

هفت قلوب المسلمين ، وتطلعت أبصارهم إلى القدس الشريف ، وتحركت مسيرة منهم شطر بيت المقدس ، منذ بداية الإسلام وفى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام .

كان القدس الشريف قبلة المسلمين الأولى ، يتجهون إليه فى الصلاة، منذ فرضها فى ليلة الإسراء والمعراج قبل الهجرة . وظل قبلتهم بعد الهجرة بوقت قارب عاما ونصف العام . ثم أوحى الله عز وجل إلى رسوله الكريم ، فى ليلة النصف من شعبان ، أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام ، وأن يولى المسلمون وجوههم شطره أينما كانوا .

وكان المسجد الأقصى فى القدس معززاً مكرما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو ثانى مسجدين وضعهما الله فى الأرض لعبادته . . سأل أبو ذر الغفارى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع فى الأرض ، فقال : « المسجد الحرام ثم المسجد الأقصى » . . وفى حديث نبوى آخر ، قال النبى عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى» . . والله جل جلاله عرف مسجد القدس بأنه ﴿ **المسجد الأقصى الذى باركنا حوله** ﴾ .

ولهذا كله ارتبط بيت المقدس بالإسلام منذ أيامه الأولى . . وكان أول مكان هفت إليه أفئدة المسلمين وتطلعت إليه أبصارهم خارج الجزيرة العربية . . بل إن غزوتين من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم سارتا صوب بيت المقدس . .

وهل كانت غزوة مؤتة ، ثم غزوة تبوك ، فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلا اتجاها إلى بيت المقدس ؟

وبادئ ذى بدء ، يجب أن نعرف أين تقع « مؤتة » وأين تقع «تبوك». . إن مؤتة تقع الآن داخل المملكة الأردنية . . وقد صارت مدينة كبيرة ، وقامت فيها جامعة من الأساتذة والطلاب اسمها جامعة «مؤتة». . وقد أحسنت حكومة الأردن صنعا بإطلاق اسم الغزوة الإسلامية المبكرة على جامعة من الأساتذة والطلاب ، لتتذكر الأجيال وتتدبر مغزى هذا التحرك الإسلامى صوب القدس .

أما تبوك فتقع فى أقصى الجزيرة العربية إلى الشمال ، على مشارف الشام ، وهى تواجه قرية نويبع المصرية ، التى تقع قريبًا جدًّا من الحدود بين مصر وفلسطين . . أو ما تصوره خرائط هذه الأيام بأنها حدود بين مصر وإسرائيل .

إن هاتين الغزوتين لم تكونا فى مواجهة قبيلة من قبائل العرب . . بل كانتا فى مواجهة الرومان ، وهم حينذاك إمبراطورية هائلة جبارة ، لها جيوش جرارة . . فلم يحفل المسلمون ، ولم يقعدوا ، بل خرجوا من جزيرتهم وساروا شمالا لمواجهة الرومان . .

* * *

وكان الرومان يحكمون الشام . . والشام فى ذلك العهد ، وإلى عهد

قريب جدًّا ، كان يضم أربعة أقطار أطلق عليها فيما بعد أسماء فلسطين والأردن وسورية ولبنان . . وحسبى وحسبك الله ، عندما نرى أن الخرائط الحديثة حذفت اسم فلسطين وأحلت محله كلمة إسرائيل !

واتجه المسلمون فى غزوة مؤتة إلى الجزء الملاصق للجزيرة العربية من أرض الشام ، أى إلى فلسطين وفيها بيت المقدس . . وقرية مؤتة التى سميت الغزوة باسمها تقع إلى أقصى الشمال على الطريق الممتد من الجزيرة إلى فلسطين .

أما لماذا كانت هذه الغزوة التى قام بها المسلمون ، وهم لا يزالون قلة فى العدد يحيط بها الأعداء الأشداء من كل جانب . . لماذا ساروا يقصدون إلى قتال الروم الذين كانوا يومئذ أكبر قوة على الأرض . . فإن كتّاب السيرة والتاريخ ، قديما وحديثًا ، يقولون إن تلك الغزوة كانت انتقاما من قيصر الروم هرقل ، لأن أحد ولاته قتل رجلا جاء إليه موفدًا من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم .

هل يعقل أن يدخل المسلمون القلائل فى حرب مع إمبراطورية الروم، لأن واحدًا منهم قتل ؟ . . بينما حدث فى الوقت نفسه أن بعث الرسول بخمسين رجلاً إلى قبيلة بنى سليم يدعونها إلى الإسلام ، فقتلت القبيلة الرجال الخمسين جميعًا ، لم ينج منهم إلا رجل واحد . . ومع هذا لم يجرد المسلمون سلاحًا ولم يشنوا حربًا على تلك القبيلة .

ولنفترض أن المسلمين أنسوا فى أنفسهم القدرة على أن يحاربوا إمبراطورية كبيرة قوية . . ألم يكن من الممكن أن يحاربوا الفرس بدلا من أن يحاربوا الروم ؟ . . فعندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام برسائله إلى الملوك والحكام يدعوهم إلى الإسلام ، تلقى قيصر الروم الرسالة ، وقرأها أو استمع إليها فى تأدب واحترام ، ورد عليها ردًّا رقيقًا مهذبًا ،

وحمَّل من جاء بالرسالة بعض الهدايا . . أما كسرى فارس ، فقد استشاط غضبًا ، ومزق الرسالة ، وأرسل إلى أحد عماله يأمره أن يأتيه برأس ذلك الرجل فى الحجاز .

فلو كان للمسلمين يومئذ أن يحاربوا خارج الجزيرة العربية ، وأن يحاربوا ردًّا للإساءة ، أو اتقاء لشر يدبر ضدهم أو غزو خارجى يتوقعون أن يقتحم بلادهم . . فقد كان طبيعيًّا أن تكون حملتهم الأولى موجهة إلى الفرس ، لا إلى الروم .

فلم يكن الفرس أقوى شوكة وأشد بأسا من الروم . . بل كان الأمر على النقيض من هذا . . بعد أن انتهت سلسلة من الحروب بين الفرس والروم ،انتهت بهزيمة الفرس وغلبة الروم ، كما أنبأ القرآن الكريم من قبل فى قوله تعالى :

﴿ الم *غلبت الروم*فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ .

وكان المسلمون يتعاطفون مع الروم فى حربهم مع الفرس . . وقد ابتأسوا عندما انتصر الفرس ومنى الروم بالهزيمة أول الأمر . . فبشر القرآن الكريم بأن الروم سيكسبون الحرب آخر الأمر . . ولعل من أسباب هذا التعاطف مع الروم ، أنهم كانوا قد اعتنقوا المسيحية وصاروا من أهل الكتاب . . أما الفرس فكانوا من المجوس ، ويضعهم الإسلام مع الكفار فى صف واحد . . وكان عداؤهم للمسلمين ، وللعرب عامة ، أشد وأعمق من عداء الروم .

فلماذا يبدأ المسلمون أول معركة لهم خارج بلادهم بمحاربة الروم المنتصرين ، وكان أيسر عليهم أن يحاربوا الفرس المهزومين ؟

لابد أن سببا قويا ، وغاية عظيمة وهدفا كبيرًا . . قد حملت المسلمين

على أن تكون أول حرب يخوضونها ، خارج الجزيرة العربية ، هى حربهم مع الروم . . وأن يكون أول قطر يسيرون إليه عبر الصحارى والآماد الشاسعة ، هو فلسطين التى كانت تحت حكم الروم . .

ولا سبب أقوى ، ولا غاية أعظم ، ولا هدف أكبر وأسمى . . من القدس الشريف . . لما له من المكانة العزيزة عند الرسول وعند المسلمين .

* * *

وأعد الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاثة آلاف رجل . .

وصغر حجم هذا الجيش . . بل هذه الكتيبة الصغيرة . . يدل على أن المسلمين ، لم يقصدوا إلى مواجهة الروم والاشتباك معهم فى معركة حربية ، لا تعادل فيها ولا تقارب بين القوتين ، عددًا وعدة وسلاحًا . . فلم تكن غزوات الرسول مغامرات عسكرية بلا ضابط ولا حساب . . ولم يحارب المسلمون ، فى ذلك العهد ، حربا واحدة عن نزوة طارئة أو انفعال طائش . . وعندما كانت فئتهم الصغيرة تغلب الفئات الكبيرة بإذن الله . . فإنما كان هذا بعد وضع خطة محكمة وإعداد طويل ، وبعد أن يوقن المسلمون كل الإيقان أن لا سبيل إلى الدفاع عن أنفسهم وعن دينهم إلا أن يحملوا السلاح ويخوضوا معركة القتال . .

وعين الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الكتيبة ثلاثة أفراد . . كلما سقط واحد منهم قتيلاً خلفه الآخر . . فعين زيد بن حارثة قائدًا للحملة . . فإن أصيب زيد فيخلفه جعفر بن أبى طالب . . فإن أصيب جعفر فيخلفه عبد الله بن رواحة .

وسار الرسول الكريم مع الجيش حتى ظاهر المدينة . . وأوصاهم

وصية ، هى حتى يومنا هذا أرقى من نصوص القانون الدولى الحديث . . وأرقى قطعا من ممارسات الدول المتمدينة المتقدمة فى عصرنا الحديث هذا . . أوصى الرسول رجاله ألا يقاتلوا النساء ولا الأطفال . . ولا الصبيان ولا الضعاف . . ولا المكفوفين . . وألا يهدموا المنازل . . وألا يقطعوا الأشجار . . وأن يتركوا المنقطعين إلى العبادة إلى ما هم فيه .

ودعا الرسول ، ودعا المودعون من ورائه ، لهذا الجيش الصغير الباسل : « صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا سالمين » .

* * *

وسار الجيش حتى بلغ مشارف فلسطين . . وهناك سمعوا أن الرومان حشدوا جيشًا عرموما من مائة ألف مقاتل . . وقيل إنه من مائتى ألف . . وسمعوا أن قيصر الروم هرقل يقود الجيش بنفسه ، وقيل إن أخاه تيودور هو الذى يقود الجيش . . وكان نصف الجيش من الجنود الرومان، ونصفه من قبائل العرب فى تلك المنطقة ، ومن اليونان الذين كانوا يحترفون فى تلك الأيام مهنة « الجنود المرتزقة » فى الجيوش الرومانية ، ومن قبل هذا فى الجيوش المصرية .

بلغ المسلمين أمر هذا الجيش الجرار ، فماذا يصنعون وهم كتيبة من ثلاثة آلاف ؟!

قال قائل منهم : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لنخبره بعدد الجيش الذى حشده الرومان ، ونطلب إليه مددًا كبيرًا من الرجال ، أو يأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر فنمضى إليه . . وكادوا يتفقون على هذا الرأى . . إلا أن عبد الله بن رواحة ، صاح فيهم بكلمات مثيرة : « ياقوم ! . . والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون . . الشهادة » !

نعم . . فقد خرجوا يطلبون الاستشهاد فى سبيل الله . . فهل يخافون وينكصون ، عندما جاءت ساعة الاستشهاد ؟

كان الاستشهاد فى سبيل الله ، ودفاعًا عن دين الله ، أحد الهدفين أمام المسلمين فى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى حروبهم فى صدر الإسلام . . وكان هدفا يتعادل ، وقد يسمو ويعلو ويكون عندهم وعند أهلهم أعز وأكرم من هدف الغلبة والانتصار . .

ثم قال ابن رواحة : ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، « فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين . . إما ظهور ونصر وإما شهادة » .

وانطلقوا . . حتى لقوا جيش الرومان الهائل عند قرية مؤتة . . ودار القتال بين ثلاثة آلاف من المسلمين ، وبين مائة ألف أو مائتى ألف ، من الرومان واليونان !

حارب المسلمون ، لا لينتصروا على الأعداء ، وإنما حاربوا ليموتوا طلبا للشهادة . .

* * *

ها هو ذا زيد بن حارثة قائد الجيش يحمل الراية التى سلمها له رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويندفع وسط الرماح المسددة ، ويتلقى بصدره السهام ، وسرعان ما يتمزق جسده ويهوى .

فيتداول الراية من يده جعفر بن أبى طالب ، وهو شاب فى الثالثة والثلاثين ، وكان وسيما ، وكان بليغًا ، بقدر ما كان باسلا شجاعا . . إنه هو الذى قاد المهاجرين المسلمين إلى الحبشة ، ووقف أمام النجاشى يشرح له مبادئ الإسلام ، ويتلو عليه سورة مريم من القرآن الكريم ،

فتسيل دموع النجاشى . . ها هو ذا الآن وسط المعركة ، يرفع سيفه ويهوى به فوق الرءوس . . فقطعته سيوف الأعداء . . قطعت يمينه التى يحمل بها الراية ، فحملها بشماله فقطعت . . فضم الراية بين عضديه . . فضربه محارب من جيش الروم فقطع جسمه نصفين .

وأخذ عبد الله بن رواحة الراية وتقدم . . وقاتل حتى قتل . . واستشهد الثلاثة الذين اختارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيادة الجيش ، فاختاروا خالد بن الوليد ليقودهم ، فى تلك الساعة العصيبة . . فكانت هذه هى أول معركة يظهر فيها مواهبه العسكرية ، التى جعلت منه ، فى المعارك الكبرى فيما بعد ، واحدًا من أعظم قواد التاريخ فى المناورات العسكرية وفى تحريك الجيوش . . واستطاع القائد الشاب أن يقوم بحركة ماهرة . . وأن يحدث ضجيجًا صاخبًا فى معسكر المسلمين . . فتوهم الرومان أن إمدادات كبيرة قد وصلت إلى المسلمين ، فراحوا يوزعون جيشهم توزيعًا جديدًا . . وبينما هم مشغولون بذلك ، استطاع خالد بن الوليد أن ينسحب بجيشه ويتجه قافلاً إلى المدينة .

قبل أن يصل الجيش إلى المدينة . . بل قبل أن تصل أنباء المعركة إلى المدينة . . قام رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيما رواه أنس بن مالك وأخرجه البخارى ، ينعى إلى الناس من استشهد من المسلمين . . نعى زيدًا ، ونعى جعفرًا ، ونعى ابن رواحة فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب . . ثم أخذها جعفر فأصيب . . ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب . . وإن عينى رسول الله لتذرفان بالدموع . . ثم أخذها سيف من سيوف الله ، خالد بن الوليد ، من غير أمر . . ففتح الله تعالى له » .

تقدم خالد إلى القيادة والصدارة ، مع أنه لم يكن معينا بأمر

الرسول . . وفتح الله له . . فلقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم باللقب الذى ظل جديرًا به . . لقب عظيم وعظيم . . هو سيف الله .

عاد الجيش إلى المدينة قافلاً ، واستقبله الناس استقبالا سيئًا . . بل كانوا يحثون التراب على العائدين ، ويصيحون بهم : يافرار . . فررتم من أعداء الله !

وأخذ الرسول عليه الصلاة والسلام يهدئ من غضب الناس وثائرتهم، ويقول : ليسوا بالفرار . . ولكنهم الكرار بإذن الله .

كلمة تنبئ بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف يستأنف الجهاد فى هذا الطريق . . وأن المسلمين سوف يكرون مرة أخرى إلى هذا الهدف البعيد . . وقد كروا مرة ثانية . . ومرات أخرى ، حتى فتح الله لهم ودخلوا القدس الشريف .

* * *

هل انتهى تطلع المسلمين إلى القدس الشريف ، وسعيهم إلى المدينة التى وضع فيها المسجد الأقصى ، وفيها الصخرة التى عرج منها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنة المأوى ، عند غزوة مؤتة التى عاد منها المسلمون فُلُولا ، يعيرهم الناس فى المدينة بأنهم الفرار من أعداء الله ؟

وماذا عما أنبأ به رسول الله عندما قال عن العائدين من غزوة مؤتة : «ليسوا بالفرار . . ولكنهم الكرار بإذن الله ؟ » .

٢ ـ اقترب المسلمون من القدس ..
فوجدوا عالما مسيحيا يرحب بهم

متى .. وكيف .. عاد المسلمون فاستأنفوا الجهاد ، سعيا إلى القدس الشريف ؟

لقد وقعت أحداث وأحداث كبار بعد غزوة مؤتة .. ففى العام التالى كان فتح مكة العظيم .. فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله ووراءه آلاف وآلاف من المسلمين ، منهم من يحمل السلاح ومنهم من لا يحمل سلاحا ، وكان هؤلاء وهؤلاء سيان ، فلن يرفع السلاح فى فتح مكة المكرمة .. وتم الفتح دون أن تراق قطرة من الدماء ، ودون أن تشوب جلاله شائبة من الثأر والانتقام .. فنبى الإسلام يؤمن بحرمة مكة ، ويؤمن بأنه يحرم فيها سفك الدماء .. أو حتى أن تقطع فيها الأشجار !

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجموع المحتشدة حوله خطبة ، قال فيها : يأيها الناس .. إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة .. لا يَحِل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماء ، أو يُعْضِد « يقطع » شجرة .. لم تَحْلِلْ لأحد كان قبلى ولا تَحِلّ لأحد يكون بعدى ، ولم تَحْلِلْ

إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس . . فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

أما أهل مكة ، الذين طالما آذوه ومن اتبعه ، وائتمروا به ليقتلوه ، ثم أخرجوه منها وهى أحب البلاد إليه . . ثم لاحقوه بالتآمر والحصار والتجويع والحرب والتقتيل . . أما هؤلاء ، فقد نظر إليهم الرسول الكريم نظرة تفيض عطفا وبرا وتسامحا ونبلاً . . وقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء !

وعندما يرفع أحد المسلمين سلاحه ، ويصيح : هذا يوم الملحمة ! . . ينهاه الرسول صلى الله عليه وسلم وينحيه ، قائلاً : هذا يوم المرحمة . .

وأمضى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هذا سنتين يرتب فيها من أمور المجتمع الإسلامى الجديد ، وأمور الحكومة الإسلامية ، اللذين قاما فى المدينة . . ويتم نشر الإسلام فيما تبقى من أرجاء الجزيرة العربية . . ويقوم بآخر غزوة داخل الجزيرة ، وهى غزوة حنين ، ويعقد معاهدة الطائف . . ويصفى ما بقى فى الداخل من جيوب الوثنية واليهودية . . ويؤمن حدود الدولة الناشئة التى تحيط بها دول كبيرة قوية ، مازالت تنظر إلى هؤلاء العرب الجدد فى دهشة وذهول ، وتفكر فى أن تضربهم ضربة ساحقة قبل أن يشتد خطرهم ويستشرى !

وسط هذا العمل الكبير ، متعدد الجوانب متشعب الاتجاهات ، ظل القدس الشريف هدفا عظيماً ، يتطلع إليه المسلمون من بعيد . .

ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى غزوة كبيرة ، تتجه إلى بلاد الشام . .

وكانت غزوة تبوك ، وهى آخر غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام .

أين تقع تبوك ؟

إنها ـ كما سبق القول ـ فى أقصى شمال الجزيرة العربية ، وعلى مقربة من حدود الشام ، خارج الحدود المألوفة للجزيرة العربية فى ذلك الزمن . . وهى على مسيرة عشرين يوما وليلة من المدينة ، وعلى مسيرة يوم أو يومين من بيت المقدس .

إنها مكان بعيد جدًّا من المدينة . . ونعرف الآن أن الطائرة من المدينة إلى تبوك تقطع سبعمائة كيلو متر .

وصرح الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين بالوجهة التى ستتجه إليها هذه الغزوة . . وهو ما لم يعلنه فى بعض غزواته السابقة . . فقد كان يعلن عن اتجاه ، ويسير فى اتجاه آخر ، حتى لا يعرف العدو ، فيباغته حيث لا يتوقع . . أما هذه المرة فقد أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الغزوة متجهة إلى الشام .

وندب الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى المشاركة فى الغزوة ، أى إلى التطوع فيها دون أمر وتكليف . . وتطوع عدد كبير من المسلمين ، وخاصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلن أنه سيخرج فى الغزوة بنفسه ، وهو حينئذ قد شارف سن الستين . . ولكن عددًا آخر من المسلمين تقاعس عن المشاركة فى الغزوة ، فقد خامرهم الشك فى حكمة هذه الغزوة ، المتجهة إلى مقابلة جيش الروم الكبير . . ومهما يكن عددهم الآن ، ومهما تكن قوتهم ، فهم قلة لاقبل لها بمحاربة الإمبراطورية الكبرى وجيشها الجرار .

* * *

ثم إن الموعد المحدد للغزوة ، كان أشد فصول السنة حرارة ولهيبا . .

ففى الأيام التى يولى فيها الصيف ، وقبل أن يبدأ الخريف ، ترتفع الحرارة إلى درجة مخيفة ، بعد أن اختزنت الأرض حرارة الشمس طوال شهور الصيف ، فتصير رمال الصحراء وحصاها كقطع من الجمر . . ويشتعل الجسم بالسخونة ، فتنفض عروقه ، وتطلب فيضًا من الماء يملؤها ويرويها . . وأنى لهم الماء والزاد فى رحلة طويلة فى فجاج الصحراء الوعرة . . حتى يصلوا إلى الشام . . إذا وصلوا ؟ !

أخذ بعض المسلمين يتقاعس ويتهرب . . وراح بعضهم يثبط همة الآخرين . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اعتزم أن يقوم بهذه الغزوة ، وأن يقودها متجها إلى الشام . . وأخذ يحث المسلمين على أن يبذلوا من أموالهم قدر ما يستطيعون . أما من ليس عنده مال ، فليلتمس مطية تحمله عبر الرحلة الطويلة فى شعاب الصحراء . .

كل هذه المتاعب والمشاق فى تكوين الجيش وتجهيزه ، جعلتهم يطلقون عليه اسم « جيش العسرة » .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم استطاع أن يعد جيشا من ثلاثين ألف رجل . . أى عشرة أمثال الكتيبة التى سيرها قبل سنوات قليلة فى غزوة مؤتة . . ولعل هذا كان أكبر جيش للمسلمين حتى ذلك الوقت .

فلماذا كل هذا الجهد والعناء والبذل والتصدى لأكبر المصاعب ، إلا أن يكون هناك هدف كبير وعزيز يريد المسلمون الوصول إليه ؟ ولا يمكن أن يكون الهدف المقصود هو مجرد ملاقاة الروم ومناوشتهم فى معركة لا تعادل فيها بين الطرفين . . ولا يمكن أن يكون الهدف هو مجرد إظهار قوة المسلمين ، عندما سمعوا أن الروم يفكرون فى الاعتداء عليهم . . فمثل هذه الغزوة قد تستفز الروم ، وتحفزهم إلى ضرب المسلمين !

* * *

لابد أن هناك هدفا كبيرًا يقتضى البذل كل البذل ، والعناء كل العناء، والتضحية كأقصى ما تكون التضحية . . ولابد أن يكون الهدف الذى يقصده المسلمون من غزوتهم هذه إلى بلاد الشام ، هو ذلك المكان المعظم . . القدس الشريف .

ووصل المسلمون إلى تبوك ، وعسكروا فيها عشرين يوما . . ولأمر ما، لم يخرج جيش الروم لمواجهتهم وصدهم ومطاردتهم فى شعاب الصحراء . . وربما قدر الرومان أن وجهة المسلمين هى القدس ، فأرادوا أن يستدرجوهم إلى هناك ، وعندئذ يخرجون عليهم بجيش عرمرم ينزل بالمسلمين الهزيمة ويردهم مدحورين . . وينزع من قلوبهم أمل الوصول إلى القدس أو فتح الشام ، ما دام على الأرض هؤلاء الرومان الجبابرة .

ولكن الله ألهم المسلمين الحكمة ، فلم يتوغلوا فى الأرض ، وقرروا أن يعودوا . . فعادوا لامنتصرين ولامهزومين . . وعجب الناس من أمر تلك الغزوة التى انتهت كما بدأت . . بلاقتال . . وبلا غنيمة، وبلا نتيجة .

ولكن الواقع ، أن غزوة تبوك كانت لها أهميتها ، ولها أثرها فيما ستأتى به الأيام من أحداث . .

لقد اقترب المسلمون فى هذه الغزوة من الهدف المقصود ، وهو القدس الشريف . . والتقوا لأول مرة بعالم مسيحى لقاء الأنداد والأقران . . بل كانوا أكثر قوة وأعلى يدا ، ممن لقوا من أهل تلك البلاد ، الذين كانوا يدينون بالمسيحية . . فكان لقاء يختلف عن لقائهم بالمسيحيين فى الحبشة، مهاجرين إليها من بطش قريش ، وملتجئين إلى النجاشى ملتمسين حمايته ورعايته . . فأما الآن ، فقد جاءوا فى جيش ليس بقليل العدد ، ولا بقليل التجربة ، وقد خاض جنوده من قبل معارك عديدة ، دافعوا فيها عن أنفسهم دفاع الأبطال المؤمنين ، وكان لهم النصر فى كل ما خاضوه من معارك .

لقد وجد المسلمون أن هذا العالم المسيحى الذى واجهوه ، لأول مرة ، ينظر إليهم نظرة احترام وإكبار . . فقد جاء وفد منهم إلى معسكر المسلمين يتقدمه يوحنة بن رؤبة ، أمير « أيلة » ، وهو الاسم الذى كان يطلق على ما نعرفه الآن باسم « العقبة » ، وما يحيط بها من قرى ، وبلاد تقع بين تبوك وبين القدس ، وكانت القدس فى ذلك الوقت تسمى «إيلياء » .

جاء أمير أيلة هذا ، وعلى صدره صليب كبير من الذهب ، وقدم الطاعة وقدم الهدايا من الطعام والكساء ، وقبل دفع « الجزية » ومقدارها ثلاثمائة دينار فى السنة . . وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا استهله بهذه الكلمات : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه « أمنة » ، أى عهد أمان ، من الله ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليوحنة بن رؤبة وأهل « أيلة » . . وأمنهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الكتاب « على أنفسهم ، وعلى سياراتهم فى البر وسفنهم فى البحر » .

هذا وضع جديد فى العلاقة بين المسلمين والمسيحيين . . ولابد أن هذا الوضع قد أشعر المسلمين بأنهم صاروا أصحاب حق ، وأصحاب نفوذ ، فى هذه المنطقة من الشام . . ولكن ما هو أهم من هذا وأبعد أثرًا فيما سيأتى من أحداث ، هو أن المسلمين تبينوا بصورة واضحة شعور المسيحيين فى الشام تجاه الرومان . . وأحسوا بأن المسيحيين فى حاجة إلى من يخلصهم من حكم الرومان . . وقد رأوا أنهم لو جاءوا يوما يفتحون الشام ، فسوف يجدون ترحيبا من المسيحيين !

وهذا ما حدث فعلا بعد سنوات قليلة ، عندما دخل المسلمون القدس وسط ترحيب أهلها المسيحيين .

ثم مضى بعد هذا عامان . . عام الوفود ، الذى دخل فيه الناس فى دين الله أفواجًا ، فأقبلت على المدينة الوفود من جميع أنحاء الجزيرة العربية ، تمثل كل من فيها من قبائل وعشائر ، فأسلمت وبايعت . . ما من قبيلة من القبائل ، التى جاوز عددها ثلاثمائة قبيلة ، إلا أعلنت إسلامها ، وبايعت الله ورسوله . . ثم كان عام الوداع ، حين ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، على رأس أكبر حشد من الناس، شهدته الجزيرة العربية فى تاريخها . . حشد من مائة ألف مسلم أو يزيد . . وأقبل المسلمون من شتى أرجاء الجزيرة ليؤدوا فريضة الحج . . وأدى الرسول صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، وطاف بالكعبة التى كانت يومها قد تطهرت وتطهر ما حولها من الأوثان والأصنام . . وألقى الرسول صلى الله عليه وسلم خطبة الوداع التى بدأها، بعد حمد الله ، بقوله : أيها الناس . . اسمعوا قولى . . فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا . . ثم تلا عليهم الآية الكريمة ، التى جعلت الصحابة يشعرون بأن الأجل قد دنا ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم مفارقهم عن قريب . . تلا عليهم قول الله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ .

فى ذلك اليوم ، لم يبق بين أهل الجزيرة أحد على وثنيته وشركه ، وأسلم أهل الكتاب، إلا من فضل أن يهاجر من بلاد المسلمين . .

وتم نصر الله . . وأظهر الله دين الحق على الدين كله .

فهل انصرفت أنظار المسلمين عن القدس الشريف ؟ وهل شغلهم عنها أن صارت الجزيرة كلها دار إسلام ؟

* * *

كانت غزوة تبوك إذن ، أشبه « بعملية استطلاعية » للمنطقة التى يعتزم المسلمون أن يحملوا إليها دعوة الإسلام عما قريب . . وحملة استطلاعية لمشاعر الناس فى تلك المنطقة تجاه حكام الرومان ، ولما ينتظر أن يكون « رد الفعل » عندهم حين يأتى المسلمون إلى بلادهم . . وقد كان من الضرورى أن يقوم المسلمون بهذه الحملة الاستطلاعية ، قبل أن يخرجوا من جزيرتهم إلى آفاق أوسع . . وقبل أن يخطوا الخطوة الأخيرة فى الطريق إلى القدس الشريف . .

فلنتأمل قليلاً ما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن عاد إلى المدينة من حجة الوداع ، وفى خلال الأيام الأخيرة من حياته :

أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتجهيز جيش كبير ، يتجه فى نفس الاتجاه الذى سار فيه المسلمون من قبل ، فى غزوتى مؤتة وتبوك . . وأمر بأن يشترك فى هذا الجيش كبار الصحابة ، ومنهم أبو بكر وعمر . . ووضع على رأس الجيش فتى شابا لا يتجاوز العشرين من عمره ، هو أسامة بن زيد . . فأبوه زيد بن حارثة كان من قبل قائدًا فى غزوة مؤتة ، وقد استشهد فيها . . فاختار الرسول الحكيم ابنه ليقود الجيش . . ومسح الرسول صلى الله عليه وسلم على صدر الشاب الذى سوف يقاتل حيث قتل أبوه . . وليكمل المسيرة التى بدأها أبوه !

واستعد الجيش العرمرم للمسيرة الثالثة شطر بلاد الشام . . واجتمع الجيش خارج المدينة ، استعدادًا للمسيرة . . وعندئذ ، بلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ألم به المرض . . ثم بلغهم أن وطأة المرض اشتدت على الرسول صلى الله عليه وسلم . . وشغل الناس بالأمر ، وألم بهم القلق . . فتوقف الجيش ريثما ينجلى الأمر .

٣ ـ وكان أول أمر أصدره أبو بكر ..
تسيير الجيش إلى فلسطين

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى .

وجاء الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ، فماذا يكون أول عمل يبدأ به خلافته ؟ . . لابد أن يبدأ خليفة رسول الله عمله ، حيث انتهى عمل رسول الله . . وقد كان آخر عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يفارق هذه الدنيا هو إعداد جيش يحمل راية الإسلام ، ويحمل دعوة الإسلام ، ويتجه إلى بلاد الشام . . التى تضم القدس الشريف ـ الشريف منذ وضع فيه المسجد الأقصى ، والشريف بصخرته التى عرج منها الرسول إلى جنة المأوى .

وما هى إلا أيام على ولاية أبى بكر الصديق ، حتى كان جيش المسلمين يسير متجها إلى الشام . . بل متجها إلى القدس الشريف .

* * *

لم تنصرف أنظار المسلمين عن القدس الشريف ، حتى فى أشد الأوقات صعوبة ، وأشد المواقف حرجا وخطرًا .

لم تنصرف أنظارهم عن التطلع إلى القدس ، فى تلك الأيام العصيبة

التى واجهوا فيها فتنة « الردة » . . وهى فتنة انتشرت فى الجزيرة العربية ، جنوبا وشمالا ، انتشار النار فى الهشيم ، وامتدت ألسنة اللهب إلى قلب الجزيرة فى مكة نفسها . .

فما إن ترامت إلى قبائل العرب الأخبار بأن محمدًا عليه الصلاة والسلام فارق هذه الحياة إلى جوار ربه ، حتى وجدوها فرصة مواتية لينزعوا عن أنفسهم ثوب الإسلام ، ويخرجوا من هذا الدين الذى أدخل عليهم مبادئ وأوضاعا ، تناقض الحياة التى ألفوها ، وجاء بشريعة وسن قوانين تغل أيديهم عما كانوا يمرحون فيه من مفاسد ومن مظالم ، ومن تكبر وتجبر ، ومن استعلاء يستذل به الأسياد رقاب العبيد ، ويغتال به الأقوياء حياة المستضعفين . .

حينئذ ، انقلب كثير ممن أسلموا على أعقابهم . . لأن كثيرًا من هؤلاء الناس ، كانوا قد أعلنوا إسلامهم ، ولكنهم لم يؤمنوا ، دخلوا بألسنتهم فى الإسلام ، أما الإيمان فلم يدخل فى قلوبهم .

إن كثيرًا من قبائل العرب أعلنت الإسلام ، بعد سنين طويلة من المكابرة والعداوة والقتال . . ولم تقبل الإسلام إلا بعد أن رأت كلمة المسلمين تعلو وقوتهم تزداد . . وكان هذا أيضا شأن قبائل أخرى ، أسلمت محاكاة لقبائل أخرى أكثر منهم عددًا وأعلى ذكرا ، لأن الضعيف يزحف دائمًا وراء القوى خوفا أو طمعا . . وكذلك كانت هناك تلك القبائل العديدة التى تعيش فى أطراف الجزيرة العربية ، فى اليمن جنوبا ، وعلى ساحل الخليج شمالا ، وبسبب بعدها هذا عن منزل الوحى فى مكة والمدينة ، وبعدها عن الرسول وصحابته من حفظة القرآن ومن دعاة الإسلام ـ كان أهلها بعيدين عن التأثر العميق بعقيدة الإسلام ، وبحكمة مبادئه وشريعته . . فلم ينفذ الإسلام إلى قلوبهم ، ولم يرسخ

فى نفوسهم، بل رأوا فيه قيودًا على حريتهم ، وانتقاصا من امتيازاتهم ، فما كادت تسنح لهم فرصة الخروج من الإسلام حتى خرجوا وارتدوا .

* * *

وأما من لم يرتد عن الإسلام ، فقد اكتفى بأن يسقط فريضة من فرائضه . . فريضة الزكاة التى هى الركن الثالث من أركان الإسلام الخمسة . . وكانت هذه الفريضة عند كثير من أولئك المسلمين ، هى أثقل الفرائض عليهم ؛ فإنهم لم يعرفوا مثيلاً لها من قبل . . وهل عرف الناس ، فى أى مكان فى العالم قبل الإسلام ، « ضريبة » تفرض على الغنى القادر ، لكى ينفق منها على الفقير والمسكين ؟ . .

إن الزكاة ، فى نظر أولئك الأغنياء القادرين ، شىء لا معنى له ، فهم يتساءلون ، ويقولون : ﴿ **أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين** ﴾ ! . . ومهما تكن هذه الزكاة زهيدة قليلة ، فهى عبء ثقيل على كاهل الغنى الذى يبتلى بحب المال ، وكلما زاد ماله أصابه السعار وطلب المزيد . .

ثم راحت تلك القبائل تتساءل : لماذا تذهب حصيلة هذه الضريبة إلى بيت المال فى المدينة ؟ ولماذا تختص المدينة وحدها بكل ما يجمع من أموال الزكاة ؟ . . وهم يعرفون جواب سؤالهم ، ولكنهم كانوا يكابرون . . فزكاة المال تنفق على الفقراء واليتامى وأبناء السبيل ، ومن يستحقها من المجاهدين ، سواء كانوا فى المدينة أو فى أى مكان آخر .

إنهم ، فى الواقع ، يريدون التخلص من حكومة الإسلام فى المدينة ، وما تفرضه عليهم من شريعة وقوانين ، فتحركوا قبيلة أثر قبيلة ، متمردين على حكومة الإسلام ، ومبتدئين ثورتهم بالامتناع عن دفع

الزكاة . . وسرعان ما انتشرت هذه الفتنة فى أرجاء الجزيرة العربية ، خلال الأيام الأولى التى تولى فيها أبو بكر ولاية المسلمين .

فماذا يفعل أبو بكر رضى الله عنه فى هذا الموقف الخطير ؟

الشىء الطبيعى ، هو أن يعبئ كل قوى المسلمين لمواجهة هذا الخطرالداهم ، ولمحاربة هؤلاء المرتدين . . وأن يصرف النظر عن تلك الحملة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعدها إعدادًا كاملاً قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، وجند لها كل المسلمين المجاهدين بمن فيهم أبو بكر نفسه ، وعين قائدها الفتى الشاب أسامة بن زيد . . وعين الرسول على وجه التحديد وجهتها ومداها . . وهى أن تطأ خيل المسلمين تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين . . وأن يتم ذلك دراكا « سريعا » . . وعندئذ يسرع أسامة بالعودة غانما بإذن الله . .

* * *

كان الأمر الطبيعى والمنطقى ، هو أن تعبأ كل القوى وتركز كل الجهود، على مقاومة خطر الردة ، وردع المرتدين المتمردين . . وهذا واجب إسلامى وفريضة لاشك فيها . . لأن الردة الجماعية هى فتنة كبرى وثورة على الإسلام ، وينبغى أن يوقع على القائمين بها والمشاركين فيها عقوبة الردة ، وهى القتل . . وهذه الردة الجماعية ، تختلف عن ارتداد فرد من الأفراد عن الإسلام ، فهذا جزاؤه عند الله يوم الحساب ، أما فى هذه الدنيا فالقاعدة الأساسية فى الإسلام أنه لا إكراه فى الدين . . على شرط ألا يكون اعتناق الدين أو تركه سعيًا وراء مصلحة خاصة . . يعتنق الإسلام ليتزوج امرأة أو ليطلق زوجة . . ثم يرتد عن الإسلام بعد أن حقق بغيته الخاصة ، أو سعيًا إلى منفعة شخصية أو مصلحة مادية أخرى .

الردة الجماعية فتنة وثورة تفرض على المسلمين حمل السلاح وقتال المرتدين ، دفاعًا عن الإسلام وعن كيان المسلمين . . أما أن يرتد فرد أو بضعة أفراد عن الإسلام ، فإن هذا لن يضير الإسلام فى كثير أو قليل . . على ألا تصحب هذه الردة أفعال أو أقوال تسىء إلى الإسلام وتشوه صورته الوضاءة .

إن أبا بكر ومن معه من المسلمين جميعًا ، كانوا مطالبين بأن يجمعوا قواهم ، ويركزوا جهودهم للتصدى للردة ولمحاربة المرتدين . . وقد أشار بهذا الرأى كثير من قادة المدينة ، ممن لهم حق المشورة على ولى الأمر أبى بكر الصديق . . وقال كثير من المسلمين : ما لنا الآن والبلقاء والداروم وتخوم فلسطين ، بينما الإسلام يهدد تهديدًا خطيرًا فى أرضه ، بل فى مهده، فى مكة التى سرى إليها تيار الردة عن الإسلام ، مثلما سرى فى شتى أرجاء الجزيرة العربية ؟ .

وقال أصحاب الرأى والمشورة . . لو كان عند المسلمين كثرة من الجند ووفرة من السلاح ، لوافقنا على إرسال فريق إلى الشمال يصل إلى أرض فلسطين . . وأبقينا أكثر الجند هنا ليحموا المدينة أولا ، فهى عاصمة الدولة ، ولينتشروا فى أرجاء الجزيرة المترامية لمواجهة الردة ومقاتلة المرتدين . . وبخاصة أولئك المشعوذون الذين ظهروا فى اليمن وفى غير اليمن . . مدعين النبوة ، ويجرون وراءهم من الأتباع والأشياع والمرتزقة ما جعل المسلمين شبه محاصرين فى المدينة بلا مدافع ولا حارس .

كلام معقول ومنطقى . . ولاشك ! . .

ولكن أبا بكر له رأى آخر . . ولن يحيد عنه أبدًا .

لابد أن أبا بكر رضى الله عنه كان يقول لنفسه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعد هذا الجيش ويسيره فى هذا الاتجاه ، إلا لأمر عظيم

يعلمه الله ، وكان يعلمه من تلقى الوحى من الله . . لابد أن وراء هذه الحملة دافعًا عظيمًا ، وأن أمامها هدفًا عظيمًا . . هل كان الدافع ، هو صد الروم عن الجزيرة العربية ، إذا ما سولت لهم أنفسهم غزوها وقهر المسلمين فيئدون الإسلام فى مهده ؟ . . أم هل الهدف هو الوصول إلى أرض البلقاء والداروم فى فلسطين ، بغية الوصول إلى القدس الشريف لما له من مكانه وجلال عند الله وعند الرسول ؟

لابد أن أبا بكر كان يقول لنفسه : كيف أوقف هذه الحملة التى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بها . . وصمم على إنفاذها ؟ . . حتى بعد أن علم أن بعض المسلمين أبدوا تذمرهم من هذه الحملة الذاهبة إلى أقصى الشمال ، وتذمرهم على الأخص من أن تكون قيادتها لشاب حدث فى العشرين من عمره ، هو أسامة بن زيد ؟

لقد كان أبو بكر هناك ، عندما بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أن بعض المسلمين أبدوا تذمرهم من الحملة ومن قيادتها . . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم عندئذ فى مرضه الأخير فغالب المرض ، وأمر أن تراق عليه سبع قرب من الماء حتى تخف عنه الحمى . . ثم خرج إلى المسجد ، وقال : أيها الناس أنفذوا بعث أسامة . . ثم وجه اللوم إلى من يعترض على قيادة أسامة لأنه شاب صغير ، وهم الذين اعترضوا من قبل على قيادة أبيه زيد بن حارثة ، فى غزوة مؤتة ، لأنه لم يكن من علية القوم وأشرافهم ، بل كان عبدًا أعتقه الإسلام ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى المسجد : لقد قلتم فى إمارته « إمارة أسامة » ما قلتم فى إمارة أبيه من قبل . . وإنه لخليق بالإمارة . . وإن كان أبوه لخليقًا بها .

ويعزف أبو بكر أيضًا أنه فى ساعة الصحوة التى تسبق الموت . دخل

أسامة على الرسول صلى الله عليه وسلم . . واستأذن فى السير بالجيش . . فأذن له الرسول صلى الله عليه وسلم . . وكانت ساعة الموت قد دنت ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم صامتا ، وكان يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة . . فأدرك الشاب وأحس بأن الرسول يدعو له فى هذه الساعة الأخيرة من حياته . . دعاء يقتدى به الأب الصالح والأم الصالحة فى دعائهما قبل الموت للأولاد البررة . .

هذا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فهل ينقض أبو بكر أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ . . هل يصرف الجيش عن وجهته التى حددها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى مشارف فلسطين ، ويختار له وجهة أخرى هى محاربة المرتدين المتمردين فى اليمن . . أو فى البحرين . . أو فى اليمامة . . أو فى مكة . . أو حيثما انتشرت فتنة الردة التى عمت أرجاء الجزيرة ؟

هذا ما لا يمكن أن يفعله أبو بكر الصديق ، وهو الصديق لكل ما يقوله ويفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإذن فليكن أول أمر يصدره خليفة رسول الله أمرًا حازمًا قاطعًا ، هذا نصه : « ليتم بعث أسامة» .

وأخذ كبار المسلمين يحاورونه ويجادلونه ، فى حكمة إرسال هذا الجيش إلى فلسطين فى ذلك الوقت العصيب . . ويقولون له إن قبائل العرب فى كل مكان قد ثارت وتمردت . . وكثير منها ارتدت عن الإسلام . . وكثير منها أعلن الامتناع عن دفع ضريبة الزكاة . . فلماذا نغرر من بقى منهم على الإسلام وشريعته بهذه الحملة التى يقودها صبى لم يبلغ سن العشرين ؟ . . فيضيق بهم أبو بكر ويخاطبهم مغضبًا ، فيقول : «والذى نفس أبى بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تخطفنى ،

لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته » .

ويشتد غضبه على أقرب الناس من حوله ، وهو عمر بن الخطاب ، عندما ذهب نيابة عن المسلمين يقول له إنه إذا كان مصرًا على إرسال هذا الجيش ، فإنهم سيخضعون لأمره ويمضون . . ولكن تحت قيادة رجل آخر أكبر سنا من أسامة . . فيصيح أبو بكر فى عمر رضى الله عنهما قائلاً: « ثكلتك أمك وعدمتك يا بن الخطاب ! استعمله ـ أسامة ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه ! » .

* * *

وخرج أبو بكر يشيع الجيش المتجه إلى أرض البلقاء والداروم على مقربة من القدس الشريف .

وسار على قدميه ، بينما الشاب أسامة يمتطى الجواد الذى مات عليه أبوه فى غزوة مؤتة ! . . وغلب الحياء على أسامة ، فقال لخليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن . . فقال أبو بكر: « والله لا تنزل ووالله لا أركب . . وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة » .

ثم استأذن الخليفة الجليل من القائد الشاب ، أن يعفى عمر بن الخطاب من المشاركة فى الحملة ، ليستعين به وبرأيه فى إدارة الأمور فى ذلك الوقت العصيب . . وقال لأسامة : « إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل » فأذن أسامة لعمر أن يبقى فى المدينة .

وعند مشارف المدينة ، اصطف الجيش والتف ، ليستمع إلى خطاب يلقيه خليفة رسول الله وحاكم المسلمين . . فلنستمع نحن اليوم إلى هذا الخطاب العظيم . . لنستمع ونقرأ من الأوامر والوصايا ما لم ترق إلى مثله

الإنسانية حتى يومنا هذا ، بكل ما وضعت من قواعد القانون الدولى ، ومن قوانين للحرب والسلام ، ومن معاهدات واتفاقيات فى جنيف وغير جنيف . . وفى الأمم المتحدة وفى المؤتمرات الدولية الكبرى . . لقد أوصى أبو بكر جيش المسلمين بعشر وصايا عظيمة ، منها :

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة » .

« ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوا ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا . . إلا لمأكلة » .

« وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

« وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام (لعله يشير إلى المسيحيين فى فلسطين وما حولها) ، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليه » .

ويختتم خطابه داعيًا لهم بالنصر والسلام وقائلاً لهم : « اندفعوا باسم الله » .

وسار الجيش متجها إلى المنطقة التى حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . سار عشرين يوما يقطع الصحراء الملتهبة بحرارة الشمس فى شهر يونيو . . حتى بلغوا مؤتة حيث استشهد زيد بن حارثة . . وصلى أسامة بن زيد ودعا لوالده الشهيد ومن قتل معه من الشهداء . . ثم بث خيوله فى صفوف مواجهة للأعداء ، ومضى هو وجنوده إلى الأمام حتى بلغوا الهدف الذى حدده لهم الرسول نفسه ، وأكده لهم خليفة الرسول ، فوطئت خيولهم البلقاء والداروم من أرض فلسطين . . فلما تم له هذا ،

لم يتجاوز الهدف المحدد ، ولم يفتنه الغرور فيستدرجه إلى ملاقاة جيش الروم ، وإنما عاد بجيشه سالمًا ومظفرًا إلى المدينة ، حيث تلقاه أهلها بكل تحية وإكبار .

وكان أبو بكر نفسه عند مشارف المدينة ، يستقبل البطل الشاب وجنوده المظفرين .

* * *

ماذا كسب المسلمون من وراء هذه الحملة التى أصر أبو بكر على إرسالها فى وقت بالغ الحرج والخطورة ؟ حتى إن المدينة نفسها ، وهى عاصمة الدولة الناشئة ، بقيت بلا حراسة وحماية ، بينما أخطار الردة والفتنة والثورة تحيط بها من كل جانب ؟

غريب أن يتحدث عديد من المؤرخين القدماء والمحدثين عما عاد به أسامة بن زيد من مغانم ، كقطعان من الإبل يسوقها وراءه . . أو كعدد من الأسرى وقعوا فى أيدى المسلمين . . أو حتى عما أظهرته هذه الحملة من قوة المسلمين ، فجعلت بعض المرتدين يفكرون فى الأمر مليا ، ويثوبون إلى رشدهم بعد أن فقدوه . . وربما جعلت الرومان أيضًا يحسبون حساب المسلمين الذين خرجوا لأول مرة خارج حدود جزيرة العرب وراحوا يقاتلون .

غريب أن يكون هذا هو كل ما يذكره المؤرخون عما كسبه المسلمون من هذه الحملة الناجحة !

ولكن الواقع ، أن هذه الحملة ، على صغرها ، كانت هى الفاتحة . . هى فاتحة الفتوح الكبرى التى بدأت بعد هذا بقليل . . هى النقطة التى انطلق منها المسلمون بعد أقل من سنتين يفتحون الشام . . ويواجهون

جيوش الرومان . . ويهزمون تلك الجيوش فى كل ما نشب من معارك . . ويرفعون راية الإسلام فوق ربوع فلسطين وما وراء فلسطين شمالاً وشرقًا وسائر بلاد الشام .

لقد كانت هى الحملة الثالثة ، التى مهد بها المسلمون طريقهم إلى القدس الشريف . . كانت الأولى هى غزوة مؤتة . . وكانت الثانية هى غزوة تبوك . . ثم كانت حملة أسامة بن زيد هى الثالثة . . فعرف المسلمون الطريق جيدًا ، وعرفوا من فيه من أعداء ومدى قوتهم . . وعرفوا من فيه ممن يمكن أن يفتح لهم الأبواب ، ويتلقاهم مرحبا ، ليخلصهم المسلمون من نير الرومان واضطهادهم .

* * *

٤ ـ عمر بن الخطاب :
يغزو القدس أم يفتحها سلما ؟

فهل كان عجيبا ، أنه لم تمض على هذه الحملة سوى سنتين . . سنتين اثنتين . . حتى فتح المسلمون القدس . . ؟ بل قل إنهم لم يفتحوا القدس ، وإنما تلقوا القدس الشريف هدية مباركة . . تلقوها فى أمن وسلام ، وفى تحية وترحيب . . عندما أقبل عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

* * *

وجاء الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، وجاء عهد الفتوح الإسلامية ، وسارت جيوش إسلامية تفتح فارس والعراق والشام ، ودارت معارك كبرى بين جيوش الفرس والرومان وبين جند الإسلام ، وكانوا جندا مظفرين غالبين بقوة الإيمان وبروح من الله .

وقررت انتصاراتهم المتتالية فى تلك المعارك مصير العالم المأهول حينذاك ، ورسم مستقبل كثير من الأمم والشعوب .

حسمت معركة اليرموك مصير الشام .

وحسمت معركة القادسية مصير العراق .

وقررت معركة المدائن مصير فارس وكسرى الفرس .

ودارت معركة أجنادين فى مشارف فلسطين ، وسقط فيها الكثير من جند الرومان ومن جند المسلمين ، فرأى القائد الرومانى ، أرطبون ، أن ينسحب بجيشه فى اتجاه القدس . . مقدرًا أن المعركة الكبرى والحاسمة ستكون عند مشارف القدس ، أو ربما فى داخل المدينة نفسها . . فالقدس هدف المسلمين ، ولن ينصرفوا عنه أبدا ، مهما كسبوا من معارك ، ومهما فتحوا من أرض ، ومهما فقدوا من رجال . . ولكن يشاء الله أن يدخل المسلمون القدس دون حرب وقتال . . دون أن تراق قطرة دم أو يشهر سلاح . . وكانت مشيئة الله ، فدخل المسلمون المدينة المقدسة فى سلام ، يستقبلهم أهلها مرحبين .

كان المسلمون قد سيروا جيشًا إلى الشام ، تحت إمرة عمرو بن العاص . وكان عمرو واحدًا من العبقريين الذين ظهروا فى تلك المرحلة من التاريخ . والعبقرية هى تعدد المواهب ، والنبوغ فيها جميعا . . فكان قائدًا عسكريا قديرًا ماهرًا . . وكان سياسيًّا ، غطت شهرته بالدهاء والبراعة مقدرته العسكرية . . وكذلك ، غطت مقدرته الإدارية التى ظهرت وتجلت عندما صار فيما بعد واليا على مصر ، فكان عهده فيها صفحة بيضاء ناصعة من الكفاءة والعدل والتسامح .

إن عمرو بن العاص وأمثاله . . خالد بن الوليد ، وأبا عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص ، ومن بعدهم عبد الرحمن الداخل فى الأندلس ، أو محمود الغزنوى فى الهند ، ثم صلاح الدين فى مصر والشام . . أولئك الأبطال لم يكونوا ـ كما ساغ وحلا لأحد الكتاب المصريين أن يصفهم فى مقال صحفى ـ «جنرالات الدولة الإسلامية» . . بل كانوا رجالا عظماء ، بكل ما تتسع له كلمة العظمة من المعانى

والآفاق . . سواء فى قدرتهم العسكرية أو فى نفوسهم المشرقة بالإيمان ، أو فى أخلاقهم الرفيعة الشريفة ، أو أعمالهم التى فاضت خيرًا وبرًا وعدلاً وتسامحًا .

ووصف هؤلاء الأفذاذ العظماء بأنهم « جنرالات » الدولة الإسلامية ، قد قصد به الإقلال والانتقاص من قدرهم العظيم . . لأن هذا الوصف، صدر عن كاتب واسع الثقافة جدًّا ، فهو يعرف أن نابليون مثلا عندما كان قائدًا لحملة فرنسية ، على إيطاليا وعلى مصر ، كان اسمه « الجنرالات بونابرت » . . أما بعد هذا ، وعندما تبدت وتجلت مواهبه السياسية والإدارية ، وصار « رجل دولة » بمعنى الكلمة ، فقد سقط عنه وصف « الجنرال » ، وعرفه العالم وعرفه التاريخ باسم نابليون. . وهناك أمثلة كثيرة ، منها واشنطن قائد أمريكا فى حرب الاستقلال ، وأيزنهاور بطل الحرب العالمية الثانية ، فقد اكتسبوا ألقابا وأوصافًا أخرى غير رتبة « الجنرال » . . وكذلك ، كان أولئك الأفذاذ المسلمين . . قادة فى أمتهم ، ورجال دولة بمعنى الكلمة ، وليسوا مجرد «جنرالات » فى معارك حربية !

ولننظر ، لنرى مثلا على هذا ، ما فعله عمرو بن العاص ، القائد العسكرى والسياسى القدير ، فى فتح القدس الشريف . عندما جمع الرومان قواهم العسكرية ، وركزوها فى القدس وما حولها ، رأت القيادة الإسلامية أن تقطع على الرومان خطوط الإمدادات العسكرية ، التى تأتيهم من روما ومن أوربا عبر البحر فى سفن تنزل فى ميناء قيسارية فى الشمال ، وميناء غزة فى الجنوب .

أرسلت القيادة الإسلامية ، وكان يتولاها أبو عبيدة بن الجراح ، فرقة من الجيش إلى ميناء قيسارية ، وهو ميناء حصين الموقع تحتله قوة كبيرة

من الرومان ، فحاصرت الفرقة الإسلامية المدينة والميناء طويلاً . . حاول الرومان فك الحصار مرارًا ، فرد هم المسلمون على أعقابهم إلى داخل المدينة . . حتى إذا طال الحصار ، واشتد الضيق بالمحاصرين ، خرج الجند الرومان جميعًا دفعة واحدة . . بخيلهم وأسلحتهم . . فدارت معركة هائلة سقط فيها كثير من المسلمين . . أما من سقطوا من الرومان، فقد قدر عددهم بثمانين ألفا ، وزاد حجم خسائرهم بمن وقع من جند الرومان أسيرًا ، أوهام على وجهه هاربا . . فقدرت خسائرهم بمائة ألف . . وإنه لعدد ضخم جدًا ، بالقياس إلى حجم الجيوش وعدد البشر فى ذلك الحين . . وهذا العدد الكبير من القتلى والأسرى ، يدل على ضخامة فرق الجيش الرومانى التى انتشرت فى أرجاء فلسطين ، وكونت حاميات قوية فى نابلس واللد ويافا وغزة . .

* * *

وغزة هذه ، كان المسلمون قد احتلوها أيام أبى بكر الصديق . . وهذا الاحتلال لمنطقة فى الطرف الجنوبى لفلسطين ، حتى فى الوقت الذى لم تبدأ فيه الفتوحات الإسلامية الكبرى ، دليل على أن المسلمين منذ البداية كانوا يتطلعون إلى فلسطين ، وبالذات إلى القدس الشريف . . فعادوا ، فى عهد عمر ، فقهروا الحامية الرومانية فى غزة واحتلوها ، وبهذا أتموا حصار فلسطين من البحر شمالا فى قيسارية وجنوبا فى غزة . .

ورغم هذا الحصار ، فإن عمرو بن العاص لا يستطيع أن يتقدم ، لمواجهة جيش الرومان الكبير ، بمن تبقى معه من جند قليل . . بعد أن استنفدت المعارك العديدة ، والرحلة الطويلة عبر الصحارى ، معظم جنوده . . فرأى أن يرسل إلى عمر بن الخطاب فى المدينة يطلب إليه مددًا

من الجند . . وكانت رسالته إلى أمير المؤمنين بضع كلمات، قال فيها كل شىء . . قال إن الحرب قاسية، والغنيمة كبيرة، والرأى لك . . وكان نص الرسالة : إنى أعالج حربا كئودًا صدوما، وبلادًا ادخرت لك . . فرأيك .

هذا هو موقف عمرو بن العاص ، القائد العسكرى ، فى ساحة القتال . . ولكن ماذا عن موقف عمرو بن العاص السياسى الداهية ، الذى يدرك بموهبته الفطرية الفذة ، ما يقولونه فى العصر الحديث من أن السياسة هى امتداد للحرب ، وأن الحرب هى امتداد للسياسة ؟

إن الموهبة السياسية ، فى هذا الرجل متعدد المواهب ، تقول له إن فى وسع المسلمين أن يتفادوا الاشتباك مع الرومان فى معركة حربية هائلة عند القدس الشريف ، إذا سعى المسلمون إلى التعاون مع أهل فلسطين ، ضد حكامهم الرومان . فالمعارك التى نشبت حتى الآن ، لم تكن بين المسلمين وأهل فلسطين المسيحيين ، وإنما كانت بين المسلمين والرومان. أما أهل فلسطين ، فقد وقفوا موقف المشاهد المتفرج على ما يقع بين الحكام الرومان والمسلمين الفاتحين . . دون أن تحركهم حماسة للروم ، وكانوا فى ذلك الوقت يدينون بالمسيحية ، ودون أن يثيرهم غضب على المسلمين ، الذين جاءوا إلى بلادهم حاملين دعوة دين آخر ، هو دين الإسلام .

كان عمرو بن العاص يدرك هذا . . ويشعر ويفكر فى أن يكسب أهل فلسطين إلى جانب المسلمين ضد حكامهم الرومان . . وعندئذ يستطيع أن يتفادى مواجهة الرومان فى معركة حربية هائلة ، حشد لها الرومان قواهم العسكرية . فمهما تكن نتيجة المعركة ، فلابد أن يفقد المسلمون كثيرًا من جندهم ، ولابد أن يخوضوا فى الدماء ، وهم فى طريقهم إلى المدينة المقدسة .

فكر الرجل السياسى ، عمرو بن العاص ، فى أن يتفادى القتال مع أهل فلسطين ، لأن هناك عاملين يحملان على الاعتقاد بأن أهل البلاد لا يريدون حربا مع هؤلاء العرب المسلمين :

العامل الأول : أن أهل فلسطين ينتمون إلى أصل عربى . . فهم من نسل كنعان ، وهو فرع من فروع العرب . . وقد نزح أجدادهم ، منذ القدم ، من سواحل الخليج المجدبة إلى الأرض الخصيبة فى فلسطين . . وتعلموا الزراعة ، واشتغلوا بها . . وكان هذا من قبل أن يجىء بنو إسرائيل إلى فلسطين بقرون وقرون طويلة . . ولهذا فإن أهل فلسطين وقت الفتح العربى ، ومن قبله بعصور مديدة ، كانوا عربا ، ولم يكونوا يهودا ، ولكن الدعاية الصهيونية فى زماننا هذا ، تقول إن العرب جاءوا فانتزعوا فلسطين من اليهود ! . . فيصدقهم العالم ، بل ونصدقهم نحن أنفسنا . . لأن طريق الدعاية إلى العقول أقصر وأسهل ، من طريق معرفة التاريخ على حقيقته .

* * *

وقد كان أهل فلسطين ، وقت الفتح العربى ، يتكلمون اللغة العربية . . لا اللغة العبرية ولا اللغة الرومانية . . ولاشك فى أن رابطة اللغة بينهم وبين المسلمين ، جعلتهم يشعرون بأن هؤلاء الوافدين عليهم من الجزيرة العربية ، ليسوا غزاة غرباء ، مثلما كانوا يشعرون تجاه حكامهم الرومان . وقد أكد هذه الحقيقة التاريخية ، العالم المؤرخ الأستاذ فيليب حتى فى كتابه « تاريخ العرب » ، فقال : « كان السوريون ، والمصريون ، يعتبرون العرب الفاتحين قوما من بنى جنسهم ، يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام السابقين الذين كانوا من الأجانب الغاصبين . . فالفتوحات الإسلامية ، من هذه الوجهة ، هى عند

التحقيق انقلاب اجتماعى سياسى استرد به الشرق الأدنى مجده الحساس الغابر » .

هذا عامل . . وأما العامل الآخر ، فهو أن أهل فلسطين كانوا ساخطين أشد السخط ، ناقمين أشد النقمة ، على الرومان وحكم الرومان . . فقد ذاقوا منهم كل صنوف الاضطهاد والتعذيب ، عندما كان الرومان وثنيين ، بينما اعتنق أهل فلسطين الديانة المسيحية . . فلما اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية ، وتحول الرومان إلى المسيحية ، لم يخف عن الفلسطينيين المسيحيين بطش الرومان وقسوتهم وجبروتهم .

* * *

ظل الرومان المسيحيون يعاملون الفلسطينيين المسيحيين معاملة الحاكم المتجبر للمحكوم المقهور . . بدعوى أن الرومان يقولون إن مسيحية أهل فلسطين تختلف عن مسيحية روما فى بعض التفاصيل . . بل لم يكن الرومان يسمحون للفلسطينيين ، ولا للمصريين المسيحيين ، بأن يبنوا كنيسة يصلون فيها ! . .

والتاريخ المصرى يثبت أمرا له أبلغ الدلالة وأعظمها ، وهو أن أول كنيسة قبطية لم تبن فى عهد الرومان المسيحيين ، وإنما بنيت فى عهد الحكم الإسلامى . . وعلى وجه التحديد ، فإن أول كنيسة قبطية فى مصر، هى كنيسة « أبى سرجة » ، وقد بنيت بعد الفتح الإسلامى بثلاث وأربعين سنة . . أى بعد أن استقر المسلمون فى حكم مصر ، ولم يكونوا فى حاجة إلى ممالأة الأقباط فى مصر ، وإنما سمحوا لهم ببناء الكنيسة التى انتخب فيها أول بطريرك لمصر ، وهو بطريرك الإسكندرية . . وسمحوا ببناء عدد من الكنائس . . تطبيقًا لمبادئ الإسلام فى احترام حقوق الذميين فى إقامة كنائسهم ومعابدهم وصلواتهم .

وكذلك كان الأمر فى فلسطين . . فبينما كان الحكام الرومان يبنون الكنائس لأنفسهم ولجنودهم داخل الثكنات والحصون ، فإنهم كانوا لا يسمحون للفلسطينيين المسيحيين أن يقيموا كنيسة إنفسهم . . ولا كانوا يسمحون لهم بممارسة الشعائر المسيحية علنا . . وفضلا عن هذا ، فقد كانوا ينزلون بهم كل ضروب الاضطهاد والإذلال . . ما يصل إلى حدود التنكيل والتعذيب . . والقتل والفتك أحيانا !

* * *

أليس عامل الأصل العربى من جانب . . وعامل النقمة والكراهية للرومان من جانب . . كفيلين بإقامة صلة من التفاهم بين المسلمين القادمين وبين أهل فلسطين ؟ صلة قوية قد تغنى المسلمين عن الحرب وقد تكفيهم شر القتال مع الرومان ؟ . . وماذا يستطيع جيش الرومان أن يفعل ، مهما يكن عدد جنوده ومهما تكن قوة سلاحه ، إذا انضم أهل فلسطين جميعا إلى المسلمين القادمين ، وفتحوا لهم مدنهم وقراهم وبيوتهم، متعاونين مرحبين ؟ . .

* * *

وفكر عمرو بن العاص وفكر . . وهداه تفكيره السياسى ، إلى أن الفتح العربى للقدس الشريف ، يمكن أن يتم فى سلام . . بل فى مودة ومحبة . . على شريطة أن يتم هذا الفتح العظيم ، فى وقار وجلال ومهابة تليق بمكانة القدس الشريف .

قد يكبر على المسيحيين فى القدس ، أن يسلموا المدينة للقائد المسلم الذى يحاصر المدينة بجنوده . . وقد يفضلون أن يقاتلوا ويقتلوا دفاعًا عن المدينة التى عاش فيها المسيح وبشر برسالته ، على تسليمها لقائد المسلمين تسليما « عسكريا » مهينا ! . . أما إذا جاء عمر بن الخطاب

نفسه . . أما إذا جاء أمير المؤمنين وعظيم المسلمين ، قاطعًا الرحلة الطويلة فى فجاج الصحراء من المدينة إلى القدس . . ثم وقف خارج القدس ، وتفاوض بنفسه مع قادة القوم وأصحاب الأمر فيهم . . ووسط مراسم ومظاهر تحفظ لأهل المدينة كرامتهم ، ولا تجعل الأمر يبدو فى صورة تفاوض وتفاهم . . فالأرجح عندئذ أن يتم فتح القدس الشريف فى سلام وفى وقار . .

* * *

وهناك فى مدينة الرسول ، كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يفكر فى الأمر نفسه ، ويستشير من حوله من أهل الرأى والمشورة . . وتشاور مع رجلين من الصفوة الراشدين هما : عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب . . وكان موضوع التفكير والتشاور : هل يرسل مددا من الجند إلى عمرو بن العاص ليخوض المعركة الحاسمة مع الرومان المعسكرين فى مدينة القدس ؟ أم هل يذهب خليفة المسلمين إليهم ، فلعلهم يتفاوضون معه فيدخل بيت المقدس فى سلام ؟

فأما عثمان بن عفان ، فلم يوافق على فكرة ذهاب أمير المؤمنين إليهم، بل نصح بألا يعيرهم اهتمامًا كبيرًا . . حتى يضيقوا بالحصار المفروض عليهم فيستسلموا للمسلمين .

وأما على بن أبى طالب ، فقال لقد أصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام . . وإذا قدمت عليهم ، كان لك وللمسلمين الأمن والعافية والصلاح والفتح . .

أما إظهار عدم الاهتمام بهم ، فقد تكون له فى نظر على بن أبى طالب عاقبة وخيمة . فقال : لست آمن أن ييأسوا منك ومن الصلح ، ويمسكوا حصونهم ، ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم . . لاسيما وبيت المقدس معظم عندهم وإليه يحجون .

٥ ـ أسقف القدس ..
يستقبل أمير المؤمنين مرحبا

وفكر عمر فى الأمر طويلاً ، فهو المسئول الأول فى الدولة عن أمته وعن جنوده . . ثم اتخذ قراره . . أو على الأصح اتخذ قرارين فى وقت واحد : قرارًا عسكريًّا بأن يرسل مددًا كبيرًا إلى الجيش الواقف على أبواب القدس ، وقرارًا سياسيًّا بأن يذهب بنفسه إلى القدس ، ويتفاوض آملا فى أن يتم الصلح .

وسرعان ما وصلت الأخبار إلى القائد الرومانى أرطبون بأن جيشًا كبيرًا من المسلمين يتحرك صوب القدس . . وكانت حاميتها قد أرهقها الحصار الطويل ، وكانت معنوياته تهبط طوال هذا الحصار . . وسرعان ما قرر أن يفر من القدس ، ومن فلسطين . . ولم يستطع أن يفر عائدًا إلى روما عن طريق البحر ، فقد كان حصار المسلمين لمنافذ البحر محكما . . ففر عن طريق الصحراء إلى مصر ، دون أن يخطر بباله ، أنه لن يمضى وقت طويل حتى يفتح المسلمون مصر أيضًا .

وصار زعيم القدس ، بعد أن فر القائد الرومانى ، هو زعيم المسيحيين : البطريرك صفرنيوس . . وأبدى البطريرك ترحيبه بعقد الصلح . . ولكنه اشترط أن يأتى زعيم المسلمين ، عمر بن الخطاب ، ليتفاوض فى الصلح ويوقع الاتفاق بنفسه .

وكان عمر حينذاك فى طريقه إلى القدس . . وفى نيته وفى رجائه أن يتم فتح القدس صلحا وسلما . . وقد تحقق رجاء عمر . . فقد أرسل البطريرك صفرنيوس إلى قائد الجيوش الإسلامية أبى عبيدة بن الجراح ، يعرض الصلح . فلنر كيف كانت المفاوضة ، وكيف كان الصلح والسلام .

* * *

رحل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من المدينة إلى القدس ، ليعقد الصلح مع أهلها ، فيدخل المسلمون مدينة المسجد الأقصى فى سلام .

وفى الوقت نفسه ، تحرك مدد من الجند من أنحاء الشام لينضموا إلى جيش عمرو بن العاص الذى يحاصر المدينة منذ شهور . . ولا يريد أن يقتحمها حتى لا تسفك الدماء فى المدينة المقدسة .

خطان متوازيان . . تحرك فيهما المسلمون فى آن واحد . . خط يريد صلحا وسلاما . . وخط لا يحجم عن القتال ، إذا لم يكن هناك بد من القتال . .

وهكذا ، كان عمر بن الخطاب ، وكان على بن أبى طالب ، وكان عمرو بن العاص ، وكان أبو عبيدة بن الجراح . . وكل أولئك الصفوة الراشدة من المسلمين الأوائل . . يدركون ما لم يدركه بعض الحكام فى أيامنا هذه . . من أن الصلح والسلام لا يأتيان ولا يتحققان إلا إذا كانت هناك قوة وإرادة وعزيمة تجعل الطرف الآخر أمام خيارين : السلام أو القتال .

وقد صارت كفة الصلح والسلام أرجح من كفة الحرب والقتال ، بعد أن خرج القائد الرومانى من القدس ، وفر إلى الصحراء ، ذاهبًا إلى مصر

وهى آخر المستعمرات الرومانية فى الشرق . وهذا القائد الرومانى الهارب، واسمه أرطبون ، هو الذى قاد فيما بعد جيش الرومان لمواجهة جيش المسلمين بقيادة عمرو بن العاص ، عند فتح مصر . . فكانت هزيمته عند بلبيس هى خاتمة حياته .

وصار الأمر ، فى مدينة القدس وما حولها ، بأيدى أهلها المسيحيين وزعيمهم الأسقف صفرنيوس ، وكان ناسكا متدينا . . وكان عالما متبحرا . . وقد عرف كثيرًا عن الإسلام والمسلمين ، فكان مطمئنا إلى أنه سيعقد معاهدة الصلح مع قوم إذا عاهدوا أوفوا بعهدهم .

ووصل عمر بن الخطاب بعد رحلة طويلة فى شعاب الصحراء . . وفى بعض الروايات ، أنه ذهب أولا إلى دمشق التى كانت قد فتحت للمسلمين ، فأعطوا أهلها عهد أمان . . اطمأن به الناس على أنفسهم وأملاكهم وكنائسهم وحرياتهم مقابل جزية يدفعونها ، هى أقل من الزكاة المفروضة على المسلمين . .

* * *

وكانت دمشق هى مقر القائد العام للجيوش الإسلامية ، فقد كانت هناك أربعة جيوش ، انتقلت من الجزيرة العربية ، وتحركت فى أرجاء الشام والعراق وفارس ، وكان لكل جيش قائده أو أميره .

وكانت للجيوش الأربعة قيادة عامة يتولاها أبو عبيدة بن الجراح ، الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه أمين الأمة .

وتفقد عمر بن الخطاب الأحوال فى دمشق . . وتمهل هناك فترة من الوقت ، دون أن يسرع إلى مدينة القدس . . لماذا ؟ لعله أراد أن يطمئن إلى أن المدد العسكرى الذى أمر بإرساله لينضم إلى جيش عمرو بن

العاص ، قد اقترب من مدينة القدس ، وعندئذ يستطيع المسلمون أن يتفاوضوا مع زعماء المدينة من مركز ، يضعونهم فيه بين خيارين : خيار الصلح والسلام أولا ، وخيار الحرب إن لم يكن هناك سبيل إلى الصلح والسلام .

إن هذا هو الطريق السوى ، الذى يسلكه العقلاء الراشدون فى سعيهم إلى السلام . . فالسلام لم يكن فى يوم من الأيام ، قديما أو حديثًا ، شرقا أو غربا ، منحة يعطيها العدو لعدوه ، عن رضا وسماحة نفس . . ولا هدية يقدمها الخصم لخصمه ، عن محبة ومودة . . ولا صدقة تستجديها أمة مسكينة هان أمرها ، من أمة قاهرة متجبرة ، فتخرج الصدقة من باب الجود والإحسان . . كلا . . وإنما يتحقق السلام ، إذا اقتنع الطرفان بأنه لا بديل للسلام إلا الحرب . . وأن الحرب قتال بين أنداد وأكفاء ، فانتصار أى من الفريقين وارد ومحتمل . . وكذلك انهزامه وارد وغير مستبعد . . وعندئذ فقط ينفتح الطريق إلى السلام .

وهذا ما حدث فى فتح المسلمين للقدس . .

فإن معركة « أجنادين » ، التى سبقت الفتح ، أظهرت قوة المسلمين أمام الرومان . . والحصار الذى فرض المسلمون حول المدينة ، قد أفزع الرومان ، فلاذ قائدهم بالفرار . . والأخبار تأتى إلى أهل المدينة ، تنبئهم بانتصارات إسلامية باهرة ، على جيوش الفرس وجيوش الرومان، فى معارك جرت فى فارس والعراق والشام . . وكل هذا من أشنه أن يجعل أهل القدس راغبين فى تفادى الحرب من المسلمين ، وفى أن يعقدوا معهم صلحا . . على شرط أن يكون صلحا مشرفا من ناحية المظهر ، وعادلا كريما فى شروطه .

فأما من ناحية المظهر فلابد أن يأتى كبير المسلمين وأميرهم بنفسه .

وجاء عمر بن الخطاب ، ومعه نفر قليل ، وقفوا خارج المدينة ينتظرون ماذا يفعل أسقف المدينة وزعماؤه . . وحانت صلاة الفجر ، فصلى عمر بالمسلمين ، ثم خطبهم . . وحانت صلاة الظهر فطلب من بلال بن رباح أن يؤذن للصلاة . . وكان بلال قد امتنع عن الأذان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وارتحل عن المدينة ليبتعد بنفسه عما جرى فيها من خلافات حول اختيار خليفة الرسول . . وامتثل بلال لطلب أمير المؤمنين ، وتقديرًا لمكانة القدس الشريف . . فلما نادى الله أكبر ، اقشعرت الأبدان وخشعت الجوارح . . فلما قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله ، بكى الناس بكاء مسموعًا . . وكان عمر بن الخطاب أكثرهم بكاء . . حتى كاد بلال أن يقطع الأذان .

وأمضى عمر أمير المؤمنين ومن معه يومين ، فى خيامهم خارج المدينة . . حتى استوثق أسقف المدينة من أن الذى جاء هو كبير المسلمين نفسه ، عمر بن الخطاب . . وعندئذ ، خرج من المدينة المحاصرة عدد من الفرسان يركضون على الخيل وفى أيديهم السيوف . . فلما أقبلوا على مخيم عمر ، فزع بعض الجنود فقاموا وشهروا السلاح . . فنهض عمر باسما ، وهدأ رجاله ، فهؤلاء الفرسان هم رسل أسقف بيت المقدس جاءوا يعقدون الصلح مع خليفة المسلمين .

* * *

وجرت مفاوضات بين مبعوثى الأسقف وبين المسلمين . . أو قل استكملت المفاوضات بين الجانبين ، فقد كانت هناك مفاوضات واتصالات منذ وصل المسلمون إلى مشارف القدس منذ بضعة شهور . . وكان عمرو بن العاص يتفاوض مع الرومان من ناحية ، ومع المسيحيين

من ناحية أخرى . وكان يطيل أمد المفاوضات ، حتى يستقر المسلمون فى المدينة على رأى وعلى قرار ، هل يقتحمون أسوار المدينة المقدسة مجاهدين مقاتلين ؟ أم هل يستقبلون سفراءها مرحبين ويدخلون معهم فى سلام ؟

وعرض عمر بن الخطاب على سفراء القدس معاهدة ، تشبه المعاهدة التى عقدها المسلمون من قبل عند فتح دمشق . . بل إنها كانت أسمى من معاهدة دمشق . . وهى المعاهدة التى عرفت باسم «العهد العمرى» . هذا العهد ، ينبغى ألا نمل من تكراره فيما نكتب وفيما نقول . . وخاصة عندما نقرأ ونسمع عما يفعله اليهود اليوم ، وعما فعله الصليبيون بالأمس، فى المدينة المقدسة .

هذا هو نص « العهد العمرى » :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل « إيلياء » (اسم القدس حينذاك ، وصفتها المدينة المرتفعة ، وأظنها تحريفا لكلمة علياء) . من الأمان . . أعطاهم الله أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانها ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتهم . . إنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها . . ولا من صليبهم . . ولا من شىء من أموالهم » .

« ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم » .

« ولا يسكن إيلياء معهم أحد من اليهود » .

وهذا شرط اشترطه المسيحيون فى القدس .

« وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية ، كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . . فمن خرج منهم ، فهو آمن على

نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية » .

« ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله من الروم ويخلى بينهم « كنائسهم » وصلبهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وعلى صلبهم حتى يبلغوا مأمنهم » .

« ومن كان فيها من أهل الأرض « الزراع » ، فمن شاء منهم قعد وعليه ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم . . ومن رجع إلى أهله (أى بعد خروجه) ، فإنه لا يؤخذ منهم شىء حتى يحصدوا حصادهم » .

« وعلى ما فى هذا الكتاب من عهد الله ، وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين . . إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية » .

« كتب وحضر سنة خمس عشرة (تقابل سنة ٦٣٦ م) » .

« شهد على ذلك . . » (أسماء الشهود) .

« وشهد على تلك الوثيقة الإنسانية العظيمة ، التى وقعها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، أربعة من أعظم عظماء المسلمين . . وكلهم من الصحابة الذين حملوا راية الإسلام . . أربعة من العظماء الأفذاذ الذين أقاموا دولة الإسلام . . أولئك القادة الراشدون المؤزرون : خالد بن الوليد ، عبد الرحمن بن عوف ، عمرو بن العاص ، معاوية بن أبى سفيان . . رضى الله عنهم جميعا قدر ما نصروا الإسلام ورفعوا رايته فى أرجاء الأرض .

هل يعرف تاريخ العالم . . تاريخ الحرب وتاريخ السلام . . قديما أو حديثا . . فى مشارق الأرض ومغاربها . . جيشًا يضرب الحصار ، ويأتيه

المدد من الجند والسلاح . . يعرض على أهل المدينة المحاصرة ما تضمن هذا العهد العمرى من مبادئ إنسانية بلغت ما بلغت من أقصى درجات العدل والسمو والتسامح ؟ . . وكيف اهتدى أولئك العرب ، وبعضهم جاء من البادية القاحلة ، وبعضهم نشأ فى بيئة قريبة من البدوية ، إلى هذه المبادئ الإنسانية ؟ التى نعرف جيدا أن الدول فى عصرنا الحديث تضعها فى القوانين الدولية والمعاهدات ، فإذا قامت الحرب ونشبت المعارك ،نسيت كل هذه المبادئ ، وراحت الجيوش بكل أسلحتها الرهيبة يفتك بعضها ببعض . . ويفتك أيضًا بالعُزَّل من الناس ، فى مدنهم وقراهم وداخل بيوتهم .

إنهم أولئك الذين خرجوا من بادية الصحراء ، ومن جاهلية المجتمع، فاهتدوا إلى هذه المبادئ الإنسانية العظيمة ، لأن هديهم كان هدى الإسلام إيمانًا ، وشريعة . .

قد يقول قائل : إن المسلمين لم يتركوا أهل القدس أحرارًا فى دينهم حرية كاملة ، وإنما فرضوا عليهم « عقوبة » التمسك بدينهم المسيحى ، وهى « الجزية » يدفعونها لبيت المال الإسلامى .

والرد على هذا بسيط جدا ، فالإسلام فرض على المسلمين . . «الزكاة» وفرض على الذميين « الجزية » . . وكانت الجزية على الفقراء منهم أقل من الزكاة المفروضة على المسلمين . . وفضلا عن هذا ، فقد أعفى المسلمون الرعايا الذميين من الخدمة العسكرية ، على أن يتولى المسلمون حمايتهم والدفاع عنهم ضد المعتدين والغزاة ، كما يتولون حماية أنفسهم والدفاع عنها .

ولننظر كيف تلقى أهل القدس ذلك « العهد العمرى » العظيم . . ابتهج أسقف القدس البطريرك صفرنيوس ، بالوثيقة التى جاء بها رجاله

تحمل توقيع خليفة المسلمين ، عمر بن الخطاب ، ويشهد عليها أربعة من أعلام المسلمين . . وكان المسيحيون فى القدس أكثر سعادة بالوثيقة التى جاءت تحمل إليهم بشرى الأمن والسلام ، وتحمل أسمى مبادئ التسامح . . وكلما استمعوا إلى الوعاظ فى الكنائس يقرءون الوثيقة ، تبينوا أنها ليست مجرد اتفاق مؤقت ، يضع هدنة بين جيشين ، أو يقيم صلحا بين خصمين ، وإنما هو عهد أمان دائم ثابت ، أعطاه عمر بن الخطاب نيابة عن المسلمين فى عصره ، وفيما يليه من عصور . . ووضع به الدستور الذى يحكم مبادئ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين أينما كانوا . . وقد بلغت شروط هذا العهد ، من العدل ومن التسامح ، ما جعل بعض الناس فى مدينة القدس يتشككون فيما وراءها من نوايا . . فقالوا : فلننتظر حتى يوضع عهد الأمان هذا موضع الاختبار ، لنرى كيف يكون التطبيق والتنفيذ ، فهذا أهم من الوثيقة وما فيها من مبادئ ونصوص .

* * *

فلنمض إذن قليلا ،لنرى ماذا فعل أمير المؤمنين عندما دخل القدس. . دخل عمر بن الخطاب بيت المقدس ماشيا على قدميه ، مرتديا ثوبا به رقع جديدة ! . . جاءوا إليه بفرس عليها سرج مطعم بالجلاجل والأجراس ، وقد دربوها على أن تهتز حين تتمشى ذات اليمين وذات اليسار ، فيهتز ويترنح راكبها زهوا وخيلاء . . ركب عمر الفرس، وسارت به قليلاً ، والجموع من حوله تضطرب وتهتاج وهى تسمع صليل الأجراس . . فقفز من فوقها وضربها بردائه وهو يقول :

قبح الله من علمك هذا الخيلاء . . ومضى فى الطريق سائرًا على قدميه ! . .

وجاءوا له برداء أبيض صنع فى مصر من الكتان ، كان ثمنه خمسة عشر درهما . . ولبسه قليلاً ، ثم نزعه عن جسمه ، وارتدى ثوبه المرقع ، وتقدم إلى حيث وقف أسقف المدينة ومعه وفد من الأعيان والكبراء ينتظرون مقدمه . .

وقد تتساءل : لماذا رفض عمر أن يلبس ثوبا جديدًا ناصعا يليق بهذه المناسبة الكبرى ؟ . . وقد يرد على هذا بأن المناسبة الكبرى ، وهذا الفتح المبين ، يستوجبان شيئًا أهم من تغيير الثوب وارتداء لباس لم يألفه من قبل . . إنهما يستوجبان حمدًا وشكرًا لله تعالى على هذا الفتح العظيم . . ودعاء وتضرعا إلى الله أن يكون المسلمون فى يومهم ذلك ، وفيما بعده من أيام وسنين ، أهلا لهذا البلد المقدس الذى فتحه الله لهم فى أمن وسلام .

وماذا يضيف الثوب أو ينتقص من الرجل الفذ العظيم ؟ . . لقد شاهدنا بأعيننا ، فى هذا العصر الحديث ، مثلا على هذا . . شاهدنا صورة المهاتما غاندى ، وهو ذاهب إلى قصر باكنجهام فى لندن ، ليقابل «صاحب الجلالة ملك بريطانيا وماوراء البحار » ، ويذهب إلى مقر الوزارة البريطانية ليفاوض اللوردات وأصحاب الألقاب الرفيعة ، ويطلب استقلال بلاده . . رأينا صوره فى هذا اللباس البسيط ، الذى يستر بعض جسمه النحيل ، وفى قدميه نعل مما يلبس فقراء الهنود . . فيهتز العالم دهشة وإعجابا . . ويهتز أيضًا بعض الإنجليز غضبًا وغيظًا . . فيقول ونستون تشرشل فى كتاب مطبوع : كيف تقبل التفاوض مع هؤلاء « القرود » ؟ . . كيف تترك إمبراطوريتنا البريطانية العظيمة لهذه «الخلائق الممسوخة » ؟ . . ولكن تشرشل عاش حتى رأى بعينيه أن من تصورهم « قرودًا » وخلائق ممسوخة . . قد صفوا إمبراطوريته العظيمة ، وأقاموا مكانها دولا مستقلة وشعوبا متحررة . .

نعود إلى ما كنا فيه . . فنقول إن أعيان مدينة القدس وكبراءها وقفوا وراء الأسقف صفرنيوس ، عند مشارف المدينة ، وأقبل عليهم عمر بن الخطاب فحياهم وحيوه ، والتفوا حوله مرحبين مبتهجين ، وجلس معهم أمير المؤمنين يتحدث فى بساطة ووداعة ، فلا يصدقون عيونهم وآذانهم أن هذا هو الرجل الذى اجتاحت جيوشه فارس والعراق والشام، ودخل جنوده أبواب كسرى وقلاع هرقل . . هرقل الذى حكمهم رجاله حكم البطش والطغيان . . ولم يشفع لهم أنهم كانوا يدينون بالمسيحية التى اتخذها هرقل ، ومن قبله أبوه قسطنطين دينا رسميا للدولة الرومانية . . فكانوا يتخذون من الخلافات المذهبية بينهم وبين المسيحيين ، فى القدس أو فى مصر ، أسبابا للتنكيل والتعذيب . . وكانوا فى هذا من الطغاة القساة . . فكان من العقوبات التى ينزلها الرومان بالمسيحى الشرقى أن يجدع أنفه ، أو تصلم أذناه !

إلى هؤلاء المسيحيين فى القدس ، تحدث أمير المؤمنين حديثًا صادقًا أدخل على قلوبهم الأمن والأمان ، وأكد لهم ما تعهد به المسلمون فى وثيقة الصلح ، التى فتحت صفحة جديدة فى تاريخ المسيحيين ، لا فى القدس وحده ، بل فى العالم الإسلامى كله ، ومهدت بعد سنين قليلة لفتح مصر ، فكان موقف المقوقس عظيم القبط مثل موقف صفرنيوس أسقف القدس .

ومضى الحديث بين خليفة المسلمين وأسقف النصارى ، حتى أقبل المساء فانصرفوا على أن يلتقوا فى الصباح ليتجولوا معه فى أرجاء المدينة . . وخلا عمر بن الخطاب إلى نفسه فقام يصلى حمدًا وشكرًا لله على نعمته الكبرى . . فلم يسبقه على صلاة الإسلام فى القدس إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين كانت معجزة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، فصلى عند « صخرة يعقوب » ومنها عرج إلى السماء .

أين كانت تلك الصخرة يوم فتح الله بيت المقدس للمسلمين ؟

وماذا فعل عمر بن الخطاب والمسلمون من بعده فى الحفاظ على صخرة يعقوب ، التى يدعيها اليهود لأنفسهم ؟ كأنما كانوا هم أصحاب الحق فى « احتكار » يعقوب لأنفسهم ، وهم يعلمون أن المسلمين يؤمنون به مثلما يؤمنون بسائر الأنبياء والمرسلين ؟ وهل كان فى القدس عند الفتح الإسلامى أى معبد ، أو أى أثر من آثار المرحلة القصيرة التى عاش فيها اليهود فى القدس ؟ . . هل كان فيها شىء يمكن أن تقوم على أساسه تلك الدعاية المدوية ، التى نفذت فى عصرنا هذا إلى أسماع وأبصار عامة الناس ، فملأت أدمغتهم واستبدت بأعصابهم ؟ . فجعلتهم يتوهمون أن القدس كانت مدينة يهودية ، فانتزعها المسلمون ، ثم عاد اليهود فاستردوها . . بقوة السلاح . . منذ بضع سنين !

إن القدس لم تكن يهودية على أية صورة من الصور ، يوم دخلها المسلمون فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة . . أى فى سنة ٦٣٦ ميلادية .

الفصل الثانى

الغزو الصليبى

١ ـ لماذا بدأت الحروب الصليبية بعد انقضاء أكثر من ستة قرون على دخول المسلمين بيـت المقـدس ؟

زحفت جموع الصليبيين من أوروبا ، تثير حميتهم خطب البابا فى اجتماعات مسيحية حاشدة ، ويتقدمها رهبان ونساك يدفعهم حماس دينى متعصب .

عقد البابا أوربان الثانى مؤتمرًا فى كليومونت فى فرنسا ، وخطب فى الناس خطابًا أثار مشاعرهم ، متحدثًا عما يلقاه الحجاج المسيحيون من عسف أولئك المسلمين الذين يحكمون بيت المقدس وفيها قبر المسيح . . ويحكمون فلسطين وفيها بيت لحم حيث ولد المسيح . فسالت الدموع وتعالت الآهات ، وراح الناس يقسمون أن يهبوا لتحرير تلك الأماكن المقدسة من أولئك المسلمين .

وراح البابا يعد أولئك الذين نذروا أنفسهم لاسترداد القدس أسخى الوعود ، ووعد كل من يترك أهله وبلده ويمضى على وجهه قاصدًا القدس صكا من صكوك الغفران . . وكان المسيحى حينذاك يعتقد أنه إذا حصل من البابا على صك مختوم بخاتم الكنيسة ، غفرت ذنوبه وضمن جنة المقيم . .

وأصدر مؤتمر كليومونت سنة ١٠٩٥ قرارًا بإعلان الحرب الصليبية . . وتحركت الجموع الهائلة . . آلافا من الرجال والشبان ، ومن الشيوخ والصبيان ، وحتى من النساء ، ، وتقدمهم نفر من القسس والرهبان .

فهناك « بطرس الناسك » يسير حافى القدمين . . وقد كست وجهه لحية شائبة شعثاء ، وتسربل بملابس مهلهلة رثة ، حاملا الإنجيل ، رافعًا الصليب . . ووراءه حشود من الناس وقد حمل كل منهم ما تيسر له من سلاح ، سيفا أو خنجرًا أو درعا وسهامًا . . وساروا على أقدامهم وفوق دوابهم ، من فرنسا وألمانيا والنمسا ، وعبروا المجر وبلاد البلقان ، متجهين إلى القسطنطينية حيث تقوم الكنيسة المسيحية الأخرى ، كنيسة الرومان الشرقيين .

وهناك « والتر المفلس » ، زعيم الغوغاء المعدمين ، الذين كانوا يقاسون الفقر والجوع فى بلاد أوروبا ، فقد أجدبت الأرض وقلت الأرزاق بسبب الحروب التى لا تنقطع ولا تهدأ بين أمراء الإقطاع . . فسارت حشود من الدهماء الفقراء متطلعة إلى الشرق وما فيه من خيرات . . وقد أقنعهم زعيمهم والتر المفلس بأن لا خيار لهم إلا أن يموتوا جوعا فى أوروبا ، أو يموتوا شرفا فى سبيل الصليب . . أما إن انتصروا فسيكون لهم نعيم الدنيا ، وغفران الذنوب أيضًا . .

وسار هؤلاء الفقراء ، وهم يعيثون فى الأرض سلبا ونهبًا . . ولم يبالوا بأنهم يسيرون فى بلاد مسيحية . . فنهبوا القرى وما فيها من أقوات . . بل قتلوا فى طريقهم آلافا من المسيحيين . . مما يدل على أن الحرب الصليبية كانت وراءها دوافع مادية ، ظهرت من هؤلاء الجياع الذين دفعتهم بطونهم ، وظهرت على الأخص فى تجار الموانى الإيطالية الذين حملت سفنهم جموعًا أخرى من الصليبيين إلى سواحل الشام وفلسطين ،

لأن أولئك التجار أرادوا أن يفتحوا طرق التجارة وأسواقها فى بلاد الشرق التى كانت أغنى وأرقى من بلاد أوروبا .

دوافع مادية ودنيوية كانت من بين دوافع الصليبيين ، وإن كان شعارهم هو الصليب ، ودعواهم أنهم يرحلون ويحاربون بإرادة الله واسم المسيح . .

والتقت تلك الجموع عند أسوار القسطنطينية ، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية المسيحية . . وكانت تعيش حينذاك تحت تهديد الأتراك السلاجقة ، الذين هبطوا من أواسط آسيا ، واكتسحوا فارس والعراق والشام ، واعتنقوا الإسلام وتحمسوا لنشره بحد السيف ، وسيطر ملوكها العظام على العالم الإسلامى ، فاتحد تحت إمرتهم فترة دامت قرنين من الزمن . .

وكان الإمبراطور البيزنطى يمنى نفسه بأن يجد من هؤلاء المسيحيين القادمين من أوروبا عونا له فى محاربة الأتراك ، فإذا به يجد جماعات من الدهماء والغوغاء ، الذين لا يعرفون حمل السلاح ولا قدرة لهم على القتال . . فبعث إلى بابا روما رسائل يقول فيها ، إن مصير هؤلاء المسيحيين هو الهلاك حتما على أيدى المسلمين . . أما إن كنتم تريدون حقا الوصول إلى بيت المقدس ، فابعثوا جيوشا منظمة ، وفرسانا مدربين، يستطيعون أن يتصدوا للأتراك المحاربين الأشداء .

وعندئذ هب الكثيرون من أمراء أوروبا وفرسانها ، وكونوا فرقا محاربة مدربة على القتال ، ومزودة بأوفر السلاح . . وزحفوا بها عبر بلاد أوروبا قاصدين القسطنطينية ، ومنها إلى القدس .

وكان معظم هؤلاء الفرسان من فرنسا ، وكانت هذه هى أول حملة

صليبية ناجحة ، ولهذا كان المسلمون يظنون أن جميع الصليبيين مسيحيون . . ومن هنا أطلقوا عليهم اسم « الفرنجة » .

* * *

لماذا فكر البابا ، وفكر ملوك أوروبا وأمراؤها وفرسانها ، فى القيام بالحرب الصليبية بعد أن انقضى أكثر من ستة قرون على دخول المسلمين بيت المقدس ، وعلى فتح فلسطين والشام ؟

لماذا لم يفكر الأوروبيون المسيحيون فى استرداد بيت المقدس من أيدى المسلمين طوال تلك القرون الماضية ؟ . . ولماذا قاموا الآن يحملون السلاح ، ويقطعون الآفاق قاصدين بلاد المسلمين بعد أن استقر فيها الإسلام أجيالا تلو أجيال ، وبعد أن صارت القدس مدينة إسلامية خالصة ، وإن ظلت أبوابها مفتوحة تستقبل الحجاج من المسيحيين ؟

هل كانت الكنيسة المسيحية راضية بذلك الوضع طوال هذه القرون ، ثم استيقظت فجأة على صيحة من البابا أوربان الثانى فى سنة ١٠٩٥ ، فقرر المسيحيون الأوروبيون أن يزحفوا بجموعهم وأسلحتهم ليستردوا ما ضاع منهم منذ أمد بعيد ؟

لا . . إن المسيحيين لم يكونوا قد نسوا بيت المقدس منذ الفتح الإسلامى فى عهد عمر بن الخطاب ، وهم قد رحبوا بالفتح الإسلامى فى أول الأمر ليخلصهم من حكم الرومان وطغيانهم ومظالمهم ، ورأوا فى عمر بن الخطاب وفى « العهد العمرى » الذى أعطاه لهم صورة عظيمة من التسامح الدينى ومن العدالة والاستقامة . . وبقيت كنائسهم محفوظة مفتوحة لصلاتهم وحجهم .

ثم مضى الزمن قليلاً ، وراح المسيحيون يتطلعون إلى استرداد بيت

المقدس من المسلمين . . ولكن أنى لهم هذا ، وقد ظل المسلمون دهرًا طويلاً أقوياء أشداء ، لا تقدر عليهم ولا تطمع فيهم أى من القوى الأجنبية ؟ . . فإن قوة المسلمين ووحدتهم وتماسكهم تحت خلافة إسلامية مسيطرة ، مكن المسلمين من الاحتفاظ بكل أرض فتحوها فى صدر الإسلام ، بفلسطين وبالشام وبالعراق وبفارس وبمصر . . بل مكنهم أيضًا من الانتشار فيما وراء هذه البلاد من آفاق مترامية ، حاملين راية الإسلام ليرفعوها فوق بلاد أخرى من أقصى الغرب فى أسبانيا والبرتغال ، وفى أقصى الشرق فى الهند والسند وتخوم الصين ، وفى الشمال حيث كادوا يفتحون القسطنطينية ويقضون على ما تبقى من الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى عهد عمر بن عبد العزيز .

وظلت هذه الوحدة قائمة ، حتى بعد أن ضعفت الخلافة العباسية وزالت هيبتها . . فقد جاء الأتراك السلاجقة من أواسط آسيا ، واعتنقوا الإسلام ، وصاروا أكثر الناس حماسة لهذا الدين ، وأشدهم جهادًا فى سبيل إعادة وحدة المسلمين وتدعيمها . . وصارت الدولة الإسلامية ، فى عهد « ملكشاه » السلجوقى ، أكثر اتساعا وأعظم قوة ، مما كانت فى عهد الدولة العباسية . .

ثم دار التاريخ دورته ، وجاء عصر الضعف والتفكك والتخاذل ، وانقسم هذا العالم الإسلامى الموحد إلى دويلات وإمارات عديدة . . وكانت هناك سلطنة العراق ، وسلطنة الشام ، وسلطنة حلب ، وسلطنة أصفهان ، وسلطنة خراسان . . وأخذت هذه الدويلات يكيد بعضها لبعض ، وتنشب بينها معارك القتال . . وأخطر من هذا ظهور الدولة الفاطمية ، شيعية المذهب ، ممتلئة بالحركة والحيوية ، فلا تكتفى بأن تحكم مصر وما وراءها من بلاد المغرب الإسلامى ، ولكنها تتطلع أيضا

إلى الشرق الإسلامى ، تريد أن تفتحه وتبسط عليه سلطانها ، مستعينة بالفرس الذين نبتت منهم جذور الحركة الشيعية ، ومستخدمة من فى الشام والعراق من دعاة الشيعة .

وفى خضم هذه الخلافات وما صاحبها من معارك ، ظهرت جماعات دينية تعتنق مذاهب غريبة ، وتفرض نفسها على المسلمين وتحكمهم شرًّا وإرهابًا . . فهناك القرامطة يحكمون الجزيرة العربية ، من مكة والمدينة إلى كل المناطق التى تمتد على الخليج العربى . . وهناك جماعة الباطنية ، وتشتهر فرقها المعروفة بفرق الحشيشية أوالحشاشين ، وقد سيطرت على بقاع كثيرة من الشام ، وصارت لها قلاعها وحصونها ، ولها أيضًا فرقها الإرهابية التى اغتالت عددًا لا يحصى من الأمراء والسلاطين !

وانقسم العالم الإسلامى ، بل انشطر انشطارًا خطيرًا . . وتجسم هذا فى الصراع والقتال الذى عم الساحة الإسلامية ، وخاصة بين دولة السلاجقة ودولة الفاطميين . . وهو صراع بين قوتين سياسيتين ، عسكريتين ، تريد كل منهما أن تقهر الأخرى ، وأن تفرض زعامتها على العالم الإسلامى كله . . بينما هناك قوة أخرى من الغرب ترى أن هذا الانقسام ، وهذه الفوضى فى العالم الإسلامى ، هو الذى يفتح لها الطريق إلى بلاد المسلمين . . ولهذا ، بدأت الحركة الصليبية متزامنة تمامًا مع حالة الضعف والتخاذل ، وموجات الفوضى والاضطراب ، التى غمرت العالم الإسلامى شرقا وغربا .

لو عبرنا عدة قرون من الزمن ، ووصلنا إلى نهاية القرن التاسع عشر ، لوجدنا أن التاريخ يعيد نفسه . .

إن الغزوة الثانية للعالم العربى والإسلامى ، وهى الغزوة الصهيونية قد بذرت فكرتها الأولى ، وبدأت محاولاتها التمهيدية ، فى وقت كان فيه

العرب جميعا ، والمسلمون جميعا ، غارقين فى نوم عميق ، تنتابهم فيه أضغاث الجهل والضعف والاستكانة . . وكانوا جميعا لا يملكون من أمرهم شيئًا ، فبلادهم تقاسمتها فيما بينها عدة دول أوروبية ، بريطانيا وفرنسا وروسيا وهولندة وإيطاليا . . وما زالت هناك دول أوروبية أخرى ، ألمانيا والنمسا والمجر ، تريد نصيبا من ذلك العالم الإسلامى ، ومن غيره من بلاد الشرق والجنوب . . وحتى ما كان مستقلا من البلاد الإسلامية ، قد كان استقلاله صورة ووهما ؛ فإيران المستقلة كانت خاضعة للنفوذ الروسى من ناحية ، والنفوذ البريطانى من ناحية أخرى . وأما الدولة العثمانية الضخمة ، فقد شاخت وترهلت وتفككت أوصالها ، وصارت تسمى برجل أوروبا المريض ، الذى يجتمع الأقوياء فى مؤتمراتهم ليتفقوا على تقسيم تركته فيما بينهم .

فى تلك الظروف ، تحرك « المشروع الصهيونى » الذى نعرفه الآن . أما الفكرة الصهيونية ، أى فكرة استيلاء اليهود على فلسطين ، فإنها فكرة قديمة ، وقديمة جدًّا لعلها ترجع إلى ذلك الزمن البعيد، حين خرج اليهود من فلسطين . . وقد ظل اليهود يرددون فى صلواتهم أنهم لا ينسون أورشليم ، وأنهم إليها عائدون . . ولكن الأمر لم يتعد طوال هذه القرون دعاء فى الصلاة ، وحلما غامضا بالعودة إلى جبل صهيون . .

فلما صار العالم العربى والعالم الإسلامى إلى ما صار إليه ، فى آخر القرن التاسع عشر ، خرجت الفكرة الصهيونية من دائرة الصلوات والدعوات ، إلى مجال التحقيق والتنفيذ . . ووضع أبو الصهيونية الحديثة، تيودور هيرتزل ، فى سنة ١٨٩٧ على وجه التحديد ، كتابه «دولة اليهود » الذى كان بمثابة حجر الأساس فى المشروع الصهيونى الكبير . . وأخذ يكتب فى جريدته فى النمسا ويروج لفكرته ومشروعه ،

ويطوف العواصم ، ويقابل الحكام والوزراء . وتعارض الحكومات فى إقامة الدولة اليهودية فى قلب العالم العربى والإسلامى . . أما العرب والمسلمون فلا وجود لهم فى حسابه !

تصور مثلا ما كتبه هيرتزل فى مذكراته ، فى فصل عنوانه « مشروع العريش » . . لقد ذهب إلى لندن وتفاوض مع الحكومة البريطانية ، طالبًا إعطاءه سيناء لينشئ فيها الدولة اليهودية ، ويتخذ من مدينة العريش عاصمة لها . . ووافق رئيس الوزراء ، ووزير الخارجية ، ووزير الحربية ، ووزير المستعمرات على إعطائه سيناء ! وجاء إلى مصر ، وقابل رئيس وزرائها ، بطرس باشا غالى ، فقال له : إن السيادة على سيناء للدولة العثمانية ، فاذهب إليها وتفاوض معها ، فهى التى تستطيع أن تعطيك سيناء . . ولولا أن لورد كرومر ، الحاكم الفعلى لمصر ، اعترض على المشروع الذى يقتضى مد فرع النيل لرى سيناء ، فى وقت كان فيه ماء النيل لا يكفى لرى أرض الدلتا والوادى الضيق ، لتم إنشاء الدولة اليهودية فى سيناء ، منذ سبعين سنة أو أكثر . .

إن هذه الغزوات الأجنبية ، صليبية كانت أو صهيونية ، لا تنبت ولا تتحقق إلا عندما تضعف الأمة العربية وتهون . . وتصير حريتها وكرامتها وحقوقها سلعا تباع وتشترى ، ويصير حكامها نهبا للأطماع والأهواء والنزوات . . وعندئذ يسرى الضعف وتجرى الاستكانة فى عروق الحكام وعروق المحكومين جميعًا .

هكذا كان الأمر عندما قامت فكرة الحرب الصليبية قديما ، وكذلك كان الأمر عندما قامت فكرة الصهيونية حديثًا . .

* * *

ولنعد إلى الحرب الصليبية . . فنجد أنها بدأت عندما تحولت الدولة

الإسلامية الواحدة إلى عديد من الدويلات والإمارات . . فصارت المدينة الواحدة دولة ، وصار الإقليم الصغير دولة ، وصارت الغارات والمعارك بين هذه الدويلات الصغيرة هى محور حياة الحكام ، وهى أيضًا مصدر مشاكل المحكومين وهمومهم . .

وبلغ هذا التفكك أقصاه ، فى نهاية القرن الخامس الهجرى ، أو نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، وعندئذ قامت فكرة الحرب الصليبية ، وبدأت جموع الصليبيين وجيوشهم تزحف إلى الشرق .

ووقعت معارك كثيرة بين المسلمين المدافعين والصليبيين المهاجمين ، وقد انتصر المهاجمون فى كل معركة تقريبًا ، وانهزم المدافعون فى كل معركة تقريبا . . وكانت المدينة الإسلامية أو الدويلة الإسلامية لا تصمد أكثر من أيام أو أسابيع أو بضعة شهور . . فلم يمض أكثر من أربع سنوات، منذ أطلق البابا صيحته إلى الحرب الصليبية ، إلى يوم أن دخل الصليبيون مدينة القدس .

منذ دخلوا القدس فى سنة ٤٩٢ هـ ، وكان هذا فى يوم من أيام شهر يونية سنة ١٠٩٩ . . سوف نرى أن الذين جاءوا يحملون الإنجيل ويرفعون الصليب قاصدين القدس ، لم يتوقفوا عند القدس ، بل راحوا ينتشرون فى أرجاء المشرق الإسلامى ، ويقيمون فيه ممالك مسيحية . . فكانت هناك مملكة القدس المسيحية ، ولها ملك من أوروبا وبطريق من أوروبا . . وكانت هناك ثلاث ممالك مسيحية أخرى فى المشرق .

ثم اتجهوا إلى مصر ، لأن الهدف لم يكن مقصورًا على القدس . . بل الهدف الحقيقى هو ضرب الإسلام ، وهزيمة المسلمين ، وتمزيق العالم الإسلامى كله .

٢ ـ المسلمون أعطوا المسيحيين فى القدس « العهد العمرى » والصليبيون ارتكبوا فى القدس أبشع مذابح التاريخ

فتح الصليبيون بيت المقدس ، وأقاموا فيه وفيما حوله من المدن والقرى مملكة القدس المسيحية . ولو كان الهدف الوحيد من الحملة الصليبية هو بيت المقدس ، لاكتفوا بهذا الانتصار الكبير . فقد صار بيت المقدس تحت حكم المسيحيين لأول مرة فى التاريخ ، فعندما فتحها المسلمون ، كانت تحت حكم الرومان ، وكان الرومان يضطهدون أهلها المسيحيين ويعذبونهم ، ولهذا رحب المسيحيون بدخول المسلمين ، وطاف أسقفهم صفرنيوس مع عمر بن الخطاب يشاهدان معا معالم المدينة ، ويتلقاهما الناس مبتهجين . .

ولكن الهدف المسيحى ، أو الدافع الدينى ، لم يكن إلا وسيلة لإثارة عواطف جماهير المسيحيين ، فراحوا يحملون سلاحهم وزادهم ويرحلون الرحلة الطويلة الشاقة سائرين على الأقدام وعلى الدواب ، وسط عواصف الجليد فى أوروبا ، ووسط زوابع الرمال فى صحراء آسيا الوسطى ، حتى يصلوا إلى المكان المقدس الذى ولد فيه المسيح ، وبشر فيه برسالة المسيحية . . وإنما كانت هناك الأهداف الدنيوية ، التى

يسعى إليها ملوك أوروبا وأمراؤها ، الذين يريدون مجدًا ونفوذًا ومزيدًا من الملك ، ويسعى إليها تجار أوروبا الذين يريدون خيرات الشرق ومصنوعاته، ينقلونها إلى أوروبا ويتاجرون بها فى الأسواق ، ويسعى إليها عامة الناس الذين أرهقهم الفقر وفتكت بهم الأوبئة مرارًا ، فرحلوا إلى الشرق الذى يسمعون أنه بلاد خصيبة فسيحة ، وفيه مغانم كثيرة . . . . ومن وراء هذا كله ، الكنيسة الرومانية التى تريد أن تحارب المسلمين وتقهرهم أينما كانوا ، فشنت عليهم حربين صليبيتين فى وقت متقارب : حرب فى الأندلس غربا ، وحرب تستهدف المقدس شرقا . .

أما المذبحة أو المذابح ، التى دارت عندما دخلوا بيت المقدس وحكموه ، فدليل قاطع على أن الدافع لم يكن دينيًّا ، وأن الهدف لم يكن مسيحيًّا . . وكيف يمكن أن تحدث تلك المذابح الرهيبة باسم السيد المسيح ؟

كتبوا إلى البابا فى روما رسالة سجلها المؤرخون المسيحيون فى كتبهم ، وقالوا فيها : « إن جنودنا كانوا يخوضون بسيقانهم حتى الركب فى دماء المسلمين » !

وقال المؤرخ الصليبى المشهور وليم الصورى : « كان بيت المقدس مخاضة واسعة من دماء المسلمين » .

واعتصمت جموع المسلمين فى مسجد عمر ، فيسجل أحد الكهنة المسيحيين ما رأى متألما . . « لقد أفرط قومنا فى سفك الدماء . . وكانت جثث القتلى تعوم فى الساحة هنا وهناك . . وكانت الأيدى والأذرع المبتورة تسبح ، كأنها تريد أن تتصل بجثث اقتطعت منها » .

أما المؤرخ المفكر الفرنسى جوستاف لوبون ، فقد قارن فى كتابه «حضارة العرب » بين فتوح العرب فى صدر الإسلام وبين الحروب

الصليبية بعد : « فأولئك العرب الذين خرجوا من الصحراء ، أعطوا المسيحيين فى القدس «العهد العمرى» المشهور، الذى تعهد فيه المسلمون بالمحافظة على كنائس المسيحيين ومقدساتهم . وأما أولئك الأوروبيون ، فكانوا يجوبون الشوارع ويصعدون إلى سطوح البيوت ، ليرووا غليلهم بالتقتيل، وكأنهم لبؤات خطفت أطفالها . وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إربا إربا . . وكانوا يشنقون مجموعة من الناس بعضهم أمام البعض بحبل واحد بغية السرعة . . وقد أمر الأمير بوهيموند بإحضار الأسرى إلى برج النصر ، فأمر بضرب رقاب الشيوخ والعجائز والضعاف ، أما الشبان والرجال فقد سيقوا ليباعوا فى سوق الرقيق » .

واقرأ ماشئت من الكتب عن الحروب الصليبية ، سواء ما كتبه المسلمون أو ما كتبه المسيحيون ، تجد أن ما دار فى بيت المقدس حينذاك، كان مذبحة شنيعة لا مثيل لها إلا المذبحة الصليبية الأخرى التى دارت فى الأندلس . . ومن الصليبيين من اشترك فى المعركتين ، مثل دايمبرت الذى عين بطريقا للقدس ، مكافأة له على ما فعله فى الأندلس حيث كان مندوبا باباويا فى إحدى المعارك الكبرى .

* * *

ومن الطبيعى أن يحل الرعب والفزع فى قلوب المسلمين جميعًا ، حكاما ومحكومين . . فالهزيمة الأليمة ، التى حلت بهم عندما انهزمت حاميتهم فضاعت القدس ، أرعبت جميع الحكام المسلمين فى فلسطين والشام ، وراح كل منهم يتوقع أن تحل بإمارته ما حل بالقدس .

فأما الحكام فى مدن فلسطين والشام ، فقد أسرعوا يتقربون إلى الصليبيين ، ويبعثون إليهم بالهدايا ، ويعقدون معهم اتفاقيات يدخلون بها فى حماية الصليبيين ، مقابل جزية يدفعونها . .

حاكم دمشق ، طلب إلى ملك بيت المقدس أن يسمح له بزيارته . . وذهب إليه محملا بالهدايا . . وطاف معه مدن مملكة القدس ، وأبدى إعجابه بما رأى . . واتفقا على التعاون فى الاستيلاء على بعض البلاد الإسلامية . . وفعلا ، أرسل حاكم دمشق ـ واسمه معين الدين ! ـ عساكره فاستولت على مدينة بانياس ، ثم سلمتها هدية للصليبيين . . وتعهد معين الدين أيضًا بأن يدفع للصليبيين جزية مقدارها عشرون ألف دينار كل شهر مدى الحياة .

وأما حاكم نابلس ، فقد أرسل وفدا إلى الصليبيين يدعوهم إلى تسلم المدينة ويدخل فى حمايتهم . . وجاء الفرسان الأوروبيون واستقبلوا على الرحب والسعة ، وتسلموا المدينة بسلام .

أما حاكم بيروت ، فقد ركب السفينة وفر إلى قبرص ، فلم يجد أهل المدينة بدا من أن يخرجوا إلى لقاء الصليبيين ، وهم يحملون الهدايا وسلالا من الفاكهة والأطعمة ، طالبين الأمان .

وقاومت صور ويافا وحيفا عدة أشهر . . ولكن الأسطول الصليبى القادم من موانى إيطاليا فى مئات من السفن تحمل آلافا من البحارة ، ضرب حصارا بحريًّا حول هذه الموانى ، فسقطت جميعًا ، ثم قطعوا الاتصال بينها وبين موانى مصر فى دمياط والإسكندرية . . وصارت التجارة بين المشرق وأوروبا فى أيدى التجار الأوروبيين وحدهم . . وعقد حكام الموانى الإسلامية معاهدات تمنح الأوروبيين امتيازات كثيرة ، وهى الامتيازات التى فرضوها عندما عادوا إلى المشرق بعد عدة قرون فى موجات الاستعمار . . ولم تلغ هذه الامتيازات التى ورثها الاستعمار عن الأيام الصليبية إلا منذ سنوات قليلة . . فلم تلغ فى مصر مثلا إلا فى سنة ١٩٣٦ . .

وراح الصليبيون يوطدون حكمهم وملكهم فى أرجاء فلسطين والشام، وأقاموا « مملكة بيت المقدس الصليبية » ، وعلى رأسها الملك بلدوين الأول الذى حكم المملكة ثمانية عشر عاما ، إلى أن مات سنة ١١١٨ ، وكانت مملكة كبيرة ، من مدنها الرئيسة بيت المقدس ونابلس وعكا ، وكانت تتبعها أربع إمارات مسيحية هى يافا والخليل وصيدا وشرق الأردن . . أما المدن الصغرى ، فقد وزعت على اثنى عشر أميرًا أوروبيًّا . .

وصار الطابع العام للبلاد طابعا مسيحيا أوروبيا . . وإن لم تندثر مظاهر الإسلام ، مثلما اندثرت فى الأندلس فيما بعد . فقد استطاع المسلمون فى الشرق أن يحتفظوا بمظاهر وجودهم ودينهم . . ولكن اللغة الفرنسية حلت محل اللغة العربية فى دوائر الحكم ، وأقبل كثير من العرب على تعلم الفرنسية لكى يتقربوا إلى الحكام ، ويجدوا عندهم وظيفة وأجرًا . وكانوا ينطقون ويكتبون اسم بولدوين ، ملك القدس ، بغدوين !

ونقل الأوروبيون معهم إلى هذه البلاد الإسلامية عاداتهم وتقاليدهم، التى كان المسلمون يتعجبون منها . . . وروى لنا المؤرخون المسلمون فى تعجب شديد ، من أن الرجل الإفرنجى يسير مع زوجته فى الطريق العام أمام الناس . . وتعجبوا أكثر من أنه إذا تقابل الأصدقاء ، فإن الرجل منهم يتحدث إلى زوجة صديقه ، وإن صديقه لا يغضب من هذا . . وإذا طال الحديث ، فقد ينصرف الزوج ويترك زوجته مع صاحبه . . ولو عاش هؤلاء المؤرخون القدامى الآن ، لازدادوا تعجبا واندهاشا من أن التحية الآن صارت قبلة يطبعها الصديق على خد زوجة صديقه . . . ولم يكن هذا معروفا بين الأوروبيين فى ذلك الزمان .

ولم يكن المجتمع الصليبى فى الشرق قائما على مبادئ المسيحية الخالصة ، بل كان فيه كثير من الانحلال الأخلاقى ، فكانوا يستوردون نساء من أوروبا لأولئك الرجال الذين تركوا زوجاتهم هناك منذ شهور أو منذ سنين . . أما الزوجات اللواتى تركن فى أوروبا فكان الرجل يحصن زوجته بطوق من حديد تلبسه تحت ملابسها . . ونشأت صناعة جديدة فى أوروبا هى صناعة « حزام العفة » . . له قفل يحمله معه الزوج ، ليطمئن إلى أن زوجته لا يمسها بشر غيره طوال غيبته فى حملته الصليبية . . وكان هذا الطوق يصنع من حديد . . أما زوجات الأمراء والنبلاء فكان طوقهن محلى بالذهب مرصعا بالأحجار . . وفى متاحف أوروبا بعض أحزمة العفة هذه !

المهم أن الصليبيين صاروا يحكمون القدس وسائر فلسطين وبلاد الشام ، حتى أطراف العراق وأطراف الجزيرة العربية . . وصارت أجراس الكنائس تدق فى كل هذه الأرجاء ، وإن بقى صوت المؤذن ينبعث خافتا من المساجد والزوايا .

* * *

فأين كان العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ؟ . . وأين كان الحكام والسلاطين الكبار الذين يستطيعون أن يوقفوا الغزوة الصليبية التى انهار أمامها الحكام والأمراء الصغار فى فلسطين والشام ؟ . . ألم تكن هناك خلافة إسلامية تجمع كلمة المسلمين ، وتثير نخوتهم وحماستهم ، وتقودهم إلى مواجهة الغزاة دفاعًا عن دينهم وبلادهم ؟

بلى . . كانت هناك خلافتان إسلاميتان . . وكان هذا هو سبب البلاء والكارثة !

كان هناك خليفة عباسى فى بغداد ، واسمه المستظهر بالله . وكان

هناك خليفة فاطمى فى القاهرة واسمه المستنصر بالله . ودع عنك خليفة (ثالثا) هو الخليفة الأموى فى قرطبة عاصمة الأندلس . . .

وكان لكل منهما إيوان وديوان ، ولكنه لا يملك من الأمر شيئًا . . فله وزير هو الذى يحكم ويقضى . . فالذى كان يحكم فى القاهرة هو الوزير « الأفاضل شاهنشاه » . . هكذا كان لقبه . . كان الحكام المسلمون فى ذلك الوقت ، وفيما بعد ذلك الوقت ، لا يعنيهم شىء أكثر من الألقاب الفخمة الضخمة . . ولهذا نمر طوال القراءة فى تاريخ الحروب الصليبية بألقاب مهيبة هائلة مثل : افتخار الدولة ، شمس الملوك ، وشرف المعانى ، وواحد منهم اسمه « صمصام الدولة » ! . . وحاكم القدس الذى سلم المدينة للصليبيين كان اسمه « معين الدين »!

وكذلك ، كان الأمر فى الدولة الإسلامية فى الأندلس التى انهارت فيما بعد . . يحمل ملوكها وأمراؤها ألقابا ، لم يحلم بها حكام المسلمين أيام المجد والقوة . . . وهذا هو « مركب النقص » الذى عبر عنه الشاعر الأندلسى فقال :

ألقـاب مملـكة فى غيـر مـوضعهـا
كالقط يحكى انتفاخا صولة الأسد !

وكان الخليفتان العباسى والفاطمى ـ أو كان وزراؤهما ـ يتنافسان فيما بينهما أيهما يكون أوسع ملكا وأكثر أتباعًا ورعايا . . وكانت الشام وفلسطين هى منطقة التنافس والتناحر بينهما . . وكانت المعارك لا تتوقف بين جنود المسلمين من هنا وهناك . . وكانت بينهما حرب دينية أيضًا ، فالفاطميون يحاولون نشر مذهبهم الشيعى فى الشام ، والعباسيون يتهمونهم بأنهم أعداء الإسلام وأن منهم فتَّاكا ، مثل الباطنية، يضللون المسلمين ويغتالون الرجال المخلصين . . وكانت

هناك ثورات تشب فى أنحاء هذا العالم الإسلامى كثورة القرامطة ، وثورة الزنج ، فتقوض الحكم الإسلامى حتى أوشك على الانهيار . .

وأكثر من هذا أن الجانبين ، العباسى والفاطمى ، أخذا يتقربان إلى الصليبيين ، ويعقدان معهم المعاهدات . . وكان الفاطميون ، على الأخص ، يتخذون من الصليبيين حلفاء ، ويحاربون أحيانا فى صفوفهم ، وعقدوا معهم معاهدة تقضى بأنه إذا تم النصر للصليبيين بمعاونة الفاطميين فإنهما يقتسمان البلاد فيما بينهما . . فيأخذ الصليبيون فلسطين كلها ، ويأخذ الفاطميون الشام كلها !

على أن الفاطميين كانوا أحسن حالا من العباسيين فى بغداد ، فهؤلاء صاروا أشبه بجثة هامدة لا حراك فيها . . أما الفاطميون فحاولوا أول الأمر أن ينقذوا ممتلكاتهم فى فلسطين ، وأن ينجدوا ولاتهم على هذه الممتلكات ، فأرسلوا أول الأمر حملة لتحمى القدس ، ولكنها وصلت إلى القدس متأخرة بعد أن دخلها الصليبيون بيوم واحد . . فأرسلوا حملة أخرى بقيادة « سعد الدولة » والتقت بكتيبة صليبية عند الرملة ، وانهزمت وقتل سعد الدولة هذا . . فأرسلوا حملة ثانية بقيادة « شرف المعالى » وكانت مكونة من عشرين ألفا ، وتقدمت بعض التقدم ، حتى وصلت إلى يافا ، فنزل الصليبيون إليهم من البحر وهزموهم وطردوهم من يافا . . ووقعت معركة فى عكا فانهزم واليها « زهر الدولة » ، وسلم للصليبيين وطلب الأمان . . ويئس الفاطميون وولاتهم من الحرب ، فاستسلموا للصليبيين الذين احتلوا جميع موانى البحر الأبيض وجميع مدن الشام وفلسطين !

أما الخليفة العباسى ، فقد استكان منذ البداية . . وكان سعيدًا بهزيمة الفاطميين وضياع ملكهم فى الشام . . وهكذا كانت العداوة بين

هؤلاء الحكام المسلمين وكراهية بعضهم بعضا أقوى كثيراً من شعورهم تجاه الصليبيين وضرورة الاتحاد فى مواجهة الهجمة الصليبية الشديدة . . وقد سجل ابن الأثير ، الذى كتب تاريخ هذه الحروب الصليبية ، موقعة موقعة وسنة إثر سنة ، هذا التمزق الإسلامى فقال : « استطال الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، بما ملكوه من بلاد الإسلام ، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضا ، وتفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء ، واختلفت الأهواء ، وتمزقت الأحوال » .

* * *

ولكن عامة الناس لم يرضوا بما رضى به الحكام والعساكر . . وكانوا أكثر إيمانا بدينهم ، وكانوا يتألمون ويتوجعون مما حل بهم وبأوطانهم وأهليهم ، وراحوا يطالبون بالجهاد وما يقتضيه الجهاد من بذل وتضحية .

وكان هؤلاء العامة يعبرون عن مشاعرهم ومطالبهم بطريقتهم . . ففى يوم الجمعة ، عندما يصعد الخطيب إلى المنبر يصيح الناس : وإسلاماه ! . . وا دين محمداه ! . . ثم يخرجون بعد الصلاة فى مظاهرة كبيرة، ويتوجهون إلى قصر السلطان فيصيحون، ويبكون ، وتتعالى بينهم أحيانا أصوات تحث السلطان أن يتحرك ويأمر جنوده ليقاتلوا الأعداء . .

أما علماء الإسلام وفقهاء الدين ، وهم قادة الشعب والمؤثرون فيه ، فكانوا فريقين : فريق يرى أن الجهاد فى سبيل الدين والوطن والنفس فريضة على كل مسلم : فريضة على الحاكم ، فيجب أن يعد جيشه وسلاحه ويحارب ، ويجب أن يبذل كل ما عنده من مال ، حتى لا يبقى له ولا لأحد من أهله أو حاشيته أو جنده إلا قوت يومه وسلاحه والمطية التى تحمله إلى ساحة القتال . وهى أيضًا فريضة على المحكومين ؛ فإذا نفد مال الدولة ، فيجب أن يخرجوا عن أموالهم جميعًا فى سبيل الله . .

وفريق آخر يرى أن بث مثل هذه الدعوة وحث الناس على القتال يثير الفتنة فيهم . . والفتنة أشد من القتل . . والفتنة نائمة ، ولعن الله من أيقظها !

وهكذا ظل الحكام نياما زهاء قرن من الزمان ، بينما المسلمون يرزحون تحت حكم الصليبيين الذين استقر بهم الأمر فى بلاد الإسلام ، إلا ما كان يحدث بينهم هم من خلافات وصراعات . . وأخذ الصليبيون يتحركون إلى العراق من ناحية ، وإلى مصر من ناحية .

٣ ـ الوحدة الإسلامية هزمت الصليبيين وأعادت بيت المقدس إلى المسلمين

تحول مجرى الحرب الصليبية إلى مصر . .

لم يعد هدف الصليبيين هدفا دينيا ، هو دخول بيت المقدس . . ولم يعد هدفا مسيحيا ، هو طرد المسلمين من بيت المقدس . . فقد تحقق هذا وذاك ، بل تحقق ما هو أكثر منه ، فاستولى الصليبيون على فلسطين وعلى الشام جميعا ، وأقاموا ممالك مسيحية على رأسها ملوك وأمراء أوروبيون ، ولها بطارقة يعينهم البابا من روما .

أما من بقى من المسلمين أميرًا أو حاكمًا هنا وهناك ، فقد صار خاضعًا للملوك الصليبيين ، يدفع لهم الجزية ويلتمس منهم الرضا والحماية .

وكان هذا الانتصار أكثر كثيرًا مما كان الصليبيون يتمنونه حين حملوا الصليب ، وحملوا السلاح ، وخرجوا من أرجاء أوروبا قاصدين بيت المقدس . . وصار واضحًا أن أولئك الأوروبيين يسعون إلى أهداف تتجاوز كثيرًا الهدف الدينى المسيحى . . إنهم يريدون أن يفتحوا المشرق ويحكموه ، ويستغلوا خيراته ، ويحتكروا تجارته ، ويتقاسمه أمراء أوروبا وحكامها ، فتكون أقطار الشرق امتدادًا لممالكهم وإماراتهم فى أوروبا . .

وكان النزاع بين هؤلاء الأمراء والحكام الأوروبيين مستمرًّا ، مثلما صار النزاع ، فيما بعد هذا بعدة قرون ، قائمًا بين الدول الاستعمارية التى تصارعت وتحاربت على اقتسام بلاد الشرق وأقطاره فى العصر الحديث . . وكذلك ، كان هناك نزاع وصراع بين الصليبيين القادمين من أوروبا وبين المسيحيين فى الشرق ، الذين تمثلهم الدولة البيزنطية . . كل فريق يريد أن يوسع آفاق مملكته ومناطق نفوذه وسيطرته ، وكل فريق يريد مزيدًا من أقطار المشرق ، يحكمه ويستغله .

وهكذا ، تحولت الحرب الصليبية إلى حرب استعمارية ، كتلك الحروب الاستعمارية فى العصر الحديث . .

وتحول مجرى الحملات الصليبية التالية ، فلم يعد متوجها إلى بيت المقدس ، وتدعيم النفوذ المسيحى فيه وفى أرجاء فلسطين والشام ، وإنما راح يتجه إلى مصر ، ويسعى إلى الاستيلاء عليها وإخضاعها للسيطرة الأوروبية والاستغلال الأوروبى . .

ونشبت الحرب مرارًا بين الصليبيين وبين حكام مصر ، مرة فى العهد الفاطمى ، ومرات فى العهد الأيوبى ، وانتصر الصليبيون وانهزم حكام مصر أحيانا ، وانهزم الصليبيون وانتصر حكام مصر أخيرًا .

ألا ترى أن التاريخ قد أعاد نفسه بعد مئات السنين ؟

إن الغزوة الصهيونية بدأت ، مثلما بدأت الغزوة الصليبية . . بدأت تسعى إلى إقامة مركز دينى روحى ثقافى فى فلسطين ، ثم راحت تطالب بإقامة مأوى وملجأ لليهود ، وسموه « الوطن القومى » . وكانت دعواهم الأولى قائمة على التوراة وما يرويه تاريخ اليهود ؛ فقد سعى فى أرض فلسطين أنبياء من بنى إسرائيل ، وقام فيها ملوك بنى إسرائيل ، فهم

يحنون إلى هذه البلاد ، ويريدون أن يحيوا فيها تراثهم الدينى والثقافى القديم . . ثم كانت دعواهم الثانية بأن اليهود لقوا فى أوروبا اضطهادًا أنزلته الحكومات ، وكراهية مارستها الشعوب على اختلافها ، سواء فى هذا الأسبان والروس والإنجليز والفرنسيون والألمان ، ثم بلغ ذروته أيام هتلر . . فهم يريدون بلدًا يلجئون إليه ، كلما عصفت بهم عواصف القسوة والاضطهاد .

وتقبل كثير من الناس هذه الدعاوى . . بل تقبلها كثير من العرب ، ومنهم زعماء ومفكرون وكتاب ، ونظروا إلى الأمر نظرة إنسانية كريمة متسامحة . . ولم يجدوا فى هذا ضرًا ولا إضرارًا بالعرب فى فلسطين وفى المشرق العربى كله .

وفى تلك المرحلة ، كان زعماء الحركة الصهيونية حريصين على ألا يذكروا كلمة « الدولة اليهودية » . . وأصدروا تعليمات مشددة إلى دعاة الصهيونية فى شتى أرجاء العالم أن يتجنبوا تماما الحديث عن الدولة اليهودية ، وأن يقولوا إن هذه مجرد فكرة ساورت عقل تيودور هيرتزل . . أما نحن فلا نريد إلا وطنا قوميا لليهود فى فلسطين ، التى ارتبطنا بها دينيا وروحيا منذ زمن طويل . .

ثم انظر ماذا حدث بعد هذا . . قامت دولة يهودية استولت بالسلاح والإرهاب منذ اليوم الأول على ثلثى فلسطين . . ثم لم تلبث أن التهمت ما بقى من فلسطين . . ثم حاولت مرات عدة أن تستولى على بلاد أخرى ، واستولت مرتين على جزء كبير من أرض مصر ، ولم تجل عنه إلا بعد أن وضعت مصر ثمن الجلاء . . واستولت ، وما تزال تستولى ، على منطقة هامة من أرض سورية . . واحتلت ، وما تزال تحتل ، جزءًا كبيرًا من أرض لبنان . . وتحول المركز الدينى الروحى الموهوم إلى قاعدة

عسكرية مدججة بأخطر أنواع السلاح ، وربما بالسلاح الذرى أيضًا ، ويمارس أهلها الحرب والقتل والعدوان والإرهاب . .

ويحدث هذا فى عصر فيه قانون دولى ، وفيه أمم متحدة لهاميثاق يحرم الاستيلاء على أرض الدول الأخرى بالقوة . . فما بالك بعصر الحروب الصليبية الذى لم يكن فيه قانون دولى ، فإن الأوروبيين لم يعرفوا القانون الدولى إلا بعد أن جاءوا إلى المشرق فى تلك الحملات الصليبية المتتابعة ، واحتلوا البلاد الإسلامية ، وعرفوا من المسلمين أن شريعتهم أقامت قوانين للحرب وللسلام ، وعرف الأوروبيون لأول مرة « القانون الدولى » الذى يتباهون به الآن !

ما فعلته الغزوة الصهيونية فى أيامنا هذه ، فعلت مثله وأكثر منه الغزوة الصليبية منذ تسعة قرون . . فهل تكون النتيجة النهائية للغزوة الأخيرة مثلما كانت للغزوة الأولى . ؟ إنى أريد أن أعتقد أن التاريخ سيعيد نفسه . . وأريد أن أوهم نفسى بأن هذا هو مآل الغزوة الصهيونية ، رغم الظلام المخيم على دنيانا فى هذه الأيام ، ومنذ عدة سنين .

* * *

فى تلك الأيام الغابرة التى بلغ فيها الصليبيون أقصى انتصاراتهم ، راحوا يتحركون فى أرجاء العالم الإسلامى ويزحفون أينما استطاعوا ، دون أن يلقوا من المسلمين ردا ولا صدا . . إلا حملات رمزية ضعيفة هزيلة ، سيرتها الدولة الفاطمية من مصر ، بعد أن شعرت هذه الدولة بالحرج أمام المسلمين ، وبعد أن كان المصلون فى المساجد يلعنون المتخاذلين .

سير الفاطميون ثلاث حملات رمزية . . كان قوام الأولى ستمائة جندى ، عادوا قبل أن يصلوا إلى القدس ، عندما علموا أن الصليبيين قد دخلوا القدس فعلا . . وفى الحملة الثانية والثالثة أرسلوا عددا أكبر

من الفرسان والمقاتلين ، والتقوا بكتائب من الصليبيين عند مدينة الرملة، وانهزموا وعادوا أدراجهم إلى مصر . . ولم تكن سفن الفاطميين أحسن حظا من جيشهم ، فقد أبحرت حتى اقتربت من ميناء صور . . ثم ارتدت مذعورة ، عندما رأت الأسطول الصليبى الذى حشده بحارة الموانى فى جنوة وبيزا والبندقية فى إيطاليا ، وكان أسطولا مؤلفا من مئات السفن . وفرت سفن الفاطميين ، عائدة . . إلى مصر ، فهبت عليها العواصف ، فغرقت فى البحر !

على أن هذه الحملات ، على صغرها وضعفها ، جعلت الصليبيين يفكرون تفكيرًا جادًّا فى أن يتجهوا إلى غزو مصر ، وإلى الإسراع بضربها ، رغم أن الفاطميين كفوا عن بذل أى جهد فى مقاومة الصليبيين ، بل تحالفوا معهم فى وقت من الأوقات ، واتفقوا على اقتسام بلاد الشام فيما بينهما ! . . وربما تبين الصليبيون ، منذ ذلك الوقت ، أن الفاطميين قد شاخوا وتآكلوا ، وأنهم لن يعمروا طويلاً ، فإذا انتهت دولتهم ، وحلت محلها دولة فتية قوية ، فعندئذ يكون هناك خطر كبير يخرج عليهم من مصر . . فقرر الصليبيون أن يغيروا مجرى الحرب الصليبية ويوجهوها إلى مصر ، ليقضوا عليها مثلما قضوا من قبل على فلسطين والشام . . وهى ضعيفة منهوكة . .

لم يكن التفكير فى ضرب مصر ، والاستيلاء عليها ، مجرد خاطر خطر لأحد أمراء الصليبيين أو فرسانهم . . ولكنه كان موضع تفكير واختلاف فى الرأى بينهم . . فكان هناك فريق يرى أن يركزوا على تدعيم سلطانهم وإحكام قبضتهم على بلاد الشام وفلسطين ، بينما كان هناك فريق آخر يرى الاتجاه إلى مصر والاستيلاء عليها ، فإن تم لهم هذا لم يستطع حكام المدن فى الشام وفى فلسطين إلا أن يستكينوا ويسلموا الأمر كله

للصليبيين . . وعندئذ تقع البلاد الإسلامية جميعًا فى قبضة الصليبيين ، لا يهددهم شىء من شمال أو من جنوب .

وخرج الملك بلدوين الأول ، على رأس كتيبة صغيرة تضم مائتين من الفرسان ، وأربعمائة من المشاة ، وسار إلى مصر . . واستولى على العريش فى الشمال ، وعلى إيلات فى الجنوب . . وأقام قلعة هنا وقلعة هناك ليقطع طريق القوافل بين مصر والشام . . وسارت الكتيبة قليلاً تكتشف المنطقة تمهيدًا لحملة كبيرة تغزو مصر . . وكان الناس قد أخلوا قراهم ، وفروا منها خوفا من الصليبيين . . ثم تأجل غزو مصر ، فقد مات بلدوين فى العريش سنة ١١١٨ م .

كانت هذه حملة استطلاعية ، اكتشفوا فيها الطرق إلى غزو مصر ، وأيقنوا أن الخلافة الفاطمية أضعف من أن تستطيع المقاومة والدفاع . . فقد انتهى عهد الخلفاء الفاطميين الكبار الأقوياء ، وصار الخليفة ـ واسمه الفائز ابن الظاهر ـ مراهقًا اختاره وزيره التركى « طلائع » فزوجه ابنته ونصبه خليفة . . ولما كبر الولد قتل صهره ، وأحل محله واحدًا لقبه « مجد الإسلام » ، ولكن حاكم الصعيد ـ واسمه « شاور » لم يعجبه هذا ، فجاء وقتل مجد الإسلام ، ونصب نفسه وزيرًا . . وكان رجلاً ظالمًا قاسيًا ، أرعب الناس ، ولم يخلصهم منه إلا « أبو الأشبال ضرغام » . . هذا اسمه ولقبه ! . . فقتل شاور وحل محله وزيرًا . . وكان كل وزير يتولى الحكم فترة قصيرة قد لا تتجاوز بضعة شهور .

ألم يكن هذا وحده كافيا لإغراء الصليبيين بغزو مصر ؟

على أن استعداد الصليبيين لغزو مصر ، استغرق فترة طويلة ، شغلوا خلالها بتوطيد حكمهم فى أرجاء الشام . . وفى الإغارة على أطراف العراق وآسيا الوسطى . . وفى مغامرة للاستيلاء على البحر الأحمر ،

وقطع طرق الحجاج ، والنزول فى أرض الحجاز ، قاصدين الحرمين الإسلاميين ، مما آثار شعور المسلمين فى كل مكان . . وأثار حتى شعور بعض الحكام المسلمين الذين حالفوا الصليبيين وأسلموهم زمام الأمور . .

ويشاء الله أن تكون فترة الإعداد لغزو مصر ، وهى فترة بلغت خمسين سنة ، مرحلة تغيرت فيها أحوال المسلمين ، وبدل الله ضعفهم قوة ، وخرج من بينهم من نذر نفسه لله فى قتال الصليبيين . . بعد أن هداه الله إلى الطريق السوى ، الذى ينبغى أن يسير فيه المسلمون إذا أرادوا النصر، وأرادوا تحرير دينهم وأوطانهم من قبضة الصليبيين الأوروبيين .

شاء الله أن يظهر وسط الظلام الذى يغمر العالم الإسلامى ، ووسط الفوضى التى يعيش فيها المسلمون مستضعفين مستكينين ، بضعة رجال يدركون أنه لا سبيل إلى قهر الصليبيين إلا إذا اتحد العالم الإسلامى اتحادًا ، يمكن من تطويق الصليبيين ومحاصرتهم من كل جانب ، واختراق قواعدهم وقلاعهم التى أقاموها وسط هذا العالم الإسلامى . . فقرر هؤلاء الرجال أن يكون هدفهم أولا وقبل كل شىء تكوين هذه الوحدة الإسلامية التى تمتد من آسيا الوسطى شمالا ، والعراق وفارس شرقا ، مخترقة المدن والموانى فى الشام وفلسطين ، وبالغة مهما كان الأمر ومهما كانت التضحية إلى مصر جنوبا . . بل تطلع هؤلاء الرجال إلى أن يجعلوا من مصر مركزًا لهذه الوحدة الإسلامية ، ومصدرًا لقوتها ، ونقطة الانطلاق منها حين يحين الوقت فيأذن الله بتحرير القدس .

ولم يكن هؤلاء الرجال من المسلمين العرب الذين اجتاح الصليبيون بلادهم . . ولم يكونوا من رجال الخلافة العباسية القائمة فى بغداد ، ولا من أشياع الخلافة الفاطمية اللاهية فى القاهرة . . لم يكونوا عربا من

الشام أو من فلسطين أو العراق أو مصر . . وإنما كانوا أتراكا وسلاجقة وأكرادًا .

ربما كان السبب فى هذا ، أن حكام العرب وزعماءهم فى ذلك الزمن لم يكونوا عربا إلا فيما ندر ، وإنما كان الحكم وكانت السلطة فى أيدى العناصر التى احتضنها الخلفاء منذ أوائل العصر العباسى ، واعتمدوا عليها واطمأنوا إليها فولوها زمام الأمور . . بينما صار العرب أشبه بمواطنين من الدرجة الثانية ، يمارسون الزراعة والتجارة والحرف المختلفة، أما الوزارة والإمارة والقيادة ، فقد تولتها العناصر الإسلامية الأخرى ، من فرس ثم من أتراك على اختلاف فروعهم ، ومن مماليك من شتى الأقطار . . فهم أصحاب السلطة والنفوذ ، ومنهم يتكون الجيش بجميع عساكره وجنوده . . وإن بقى الخليفة العباسى وحده ، يفاخر بأجداده وأعمامه العرب ، وبقى الخليفة الفاطمى يفاخر بأنه من نسل النبى العربى عليه الصلاة والسلام . . وإن كان هذا الخليفة وذاك ، وأسلافهما من قبل ، قد هبطوا بالعرب ووضعوهم فى درجة أدنى من مرتبة العناصر الإسلامية الأخرى ، ابتداء بالبرامكة ، وانتهاء بالمماليك . .

والتاريخ المفصل للحروب الصليبية ، لا يكاد يذكر اسما عربيا يدل على أن صاحبه عراقى أو شامى . . وإنما هى أسماء تركية أو فارسية أو كردية . . وأحيانا تجد اسما أرمنيا !

فحاكم دمشق اسمه طفتكين ، وحاكم حمص اسمه خيمخان بن قراجا ، وحاكم الموصل اسمه كربوقا ، وحاكم ماروين بالشام اسمه تاش بن إيلفازى .

وهناك السلطان بركيار . . وهناك معين الدين أُنُر (بضم الهمزة والنون) . . وهناك مجير الدين أَبَق (بفتح الهمزة والباء) .

وقواد الجيش منهم الأمير كتندى ، والأمير إيلفازى ، والأمير جيوش بك . وهناك قائد مهم اسمه برسق بن برسق .

وإذا جاء اسم امرأة مسلمة فى الحروب الصليبية ، فهو « زمرد خاتون» وما شابه ذلك .

ولاشك فى أن الإسلام سوى بين المسلم العربى والمسلم غير العربى . وإذا كان غير العربى أهلا لتولى منصب الحكم ، فهو أولى من عربى غير مؤهل لتولى أمور الرعية . . والقومية فى نظر الإسلام ليست قومية وطن ولا جنس ولا لون . وإنما القومية هى الإسلام ، ولا فضل لمسلم على مسلم إلا بالتقوى .

وقد شاء الله أن يظهر من بين تلك العناصر الإسلامية ، وعلى وجه التخصيص ، من العنصر السلجوقى ومن العنصر الكردى ، رجال كانوا فعلاً من أهل التقوى . . جاهدوا فى سبيل دينهم وبلادهم أعظم الجهاد، فشقوا الطريق إلى الوحدة الإسلامية ، ثم أقاموها . . وقادوا المسلمين إلى نصر يتلوه نصر على الصليبيين .

خرج عماد الدين زنكى ، من الصقالبة ، محاربا مجاهدًا حتى استشهد. وخرج منهم نور الدين محمود ، فحارب حتى انتزع دمشق والشام من الصليبيين ، ثم سير جيشه إلى مصر ليقيم وحدة إسلامية قوية مرهوبة .

وخرج فى جيشه إلى مصر شاب كردى اسمه صلاح الدين . . هذا البطل الذى كتب له فيما بعد أن يخرج بجيش من مصر يهزم الصليبيين ، ويتقدم إلى بيت المقدس فيحرره من قبضتهم ، ويعيده بلدًا إسلاميًّا كما كان منذ دخله العرب المسلمون ، وتسلمه عمر بن الخطاب أمانة فى عنق المسلمين . .

٤ ـ ثلاثة من عظماء المسلمين وضعوا نهاية لغزوات الصليبيين

استمر الصليبيون فى أوج قوتهم ، واستمر المسلمون فى درك الضعف، زهاء قرن من الزمان .

فقد وصل الصليبيون إلى المشرق ، واستولوا على عديد من مدن الشام، ثم توجوا انتصاراتهم بدخول بيت المقدس . . وكان هذا فى السنة الأخيرة من القرن الحادى عشر . . ولا نكاد نعرف هل كان المسلمون فى الشرق أحياء أم أمواتًا . . وظل الأمر هكذا ، حتى اقترب منتصف القرن الثالث عشر .

نقرأ ، ونقرأ ، تاريخ هذه الفترة الطويلة من الزمن ، فنظن أن تلك الأراضى التى تسمى الشام وفلسطين والأردن ليست إلا مستعمرات ، بل مملكات ، أوروبية ، ملوكها وأمراؤها أوروبيون ، والأحداث التى تجرى فيها امتداد لما يجرى فى أوروبا . . والمعارك فيها لا تتوقف ، ولكنها ليست معارك بين المسلمين والصليبيين ، وإنما هى معارك بين المسيحيين بعضهم بعضا . فهناك صراع بين الدولة البيزنطية التى تمثل المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس ، وبين المسيحيين الأوروبيين الكاثوليك الذين يدينون بالولاء الدينى والسياسى للبابا فى روما . . وهناك صراعات شتى

بين ملوك أوروبا كل يريد توسيع مملكته بمزيد من المستعمرات فى الشرق .

وجميع الأسماء المهمة التى يذكرها تاريخ هذه الفترة تكاد تكون أسماء أوروبية . . بولدوين الأول . . والثانى . . والثالث . . والرابع .

ونقرأ مرارًا وتكرارًا اسم بوهيمتد من الأول إلى الخامس ، ونتكراد ، وروجرز ، وريموند ، وغودفرى ، وريغنالد الذى عرفه المسلمون باسم أرناط . . والذى جرد حملة للاستيلاء على مكة والمدينة . . وأيضا حنا كومنين البيزنطى !

أما المسلمون ، فكل ما نقرؤه عنهم طول قرن ونصف القرن ، هو أن أميرًا منهم استنجد بالصليبيين القادمين من أوروبا ، فاستنجد الأمير الآخر بالدولة البيزنطية . . أو أن أتابك دمشق ، أى حاكمها ، وضع نفسه تحت حماية أحد من الأمراء والفرسان الصليبيين ، فراح أتابك حلب أو أتابك الموصل ، يسعى ليضع نفسه تحت حماية أمير أو فارس صليبى آخر . . أما إذا كانت هناك موقعة بين المسلمين والصليبيين ، فهى فى الغالب ليست إلا عملية من عمليات قطع الطريق ، ونهب شىء من الأقوات ، والفرار بشىء من الغنائم ! . . ورغم هذا ، فما زال عامة المسلمين يذهبون إلى المساجد يصلون ، ومازالوا يستمعون إلى خطيب المسجد يدعو للخليفة فى بغداد ، أو الخليفة فى القاهرة . .

ولو أردت أن تتخيل صورة العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، فأمامك صورة مصغرة للعالم الإسلامى الذى نعيش فيه الآن . . هذا العالم الذى نشهد فيه ما نشهد من خلافات وصراعات ، ومن أحقاد وأطماع ، ومن تخاذل واستهانة بعظائم الأمور . . ونشهد فيه الجميع يتكالبون على هذه أو تلك من الدول الأجنبية ذات القوة والهيمنة فى عصرنا هذا ، ويلتمس

منها الحماية والمعونة . . إن هذا العالم الإسلامى المعاصر ، هو صورة مصغرة من العالم الإسلامى ، عندما هبت عليه عواصف الحروب الصليبية . . بل لابد أن تضاعف الصورة الحالية ، مرات ومرات ، حتى تستطيع أن تصور دنيا المسلمين التى هانت وذلت ، ثم انهارت أمام الزحف الصليبى الأوروبى الجارف . .

* * *

ولكن . . . ينبغى أن نعرف أن الأوروبيين كانوا ، قبل أن تبدأ الحرب الصليبية ، مثل المسلمين تمامًا . .

كانت بلادهم ـ قبل أن يبدأ الزحف الصليبى ـ موزعة بين عديد من الملوك والأمراء والنبلاء والفرسان ، وكانوا جميعًا يخوضون معارك فيما بينهم لا تقف ولا تنتهى . . وكان الواحد منهم يخرج من معركة ضد هذا الجار أو هذا العدو ، فلا يكاد يلتقط أنفاسه قليلاً ، حتى يستأنف القتال فى معركة جديدة مع عدوه القديم أو عدو جديد . . وكانت المعاهدات تعقد بينهم لا لتقيم صلحا وسلاما ، وإنما ليتحالف هذا ضد هذا ، وليستولى ذاك على إمارة ذاك ، أو هى هدنة يلتقطون فيها أنفاسهم ويتأهبون للقتال مرة أخرى . .

كان هذا هو عهد الإقطاع فى أوروبا وفى الشرق على السواء . . كل له إقطاعيته ، وكل يريد حمايتها ، ويريد توسيعها . . فتصير الإقطاعية الصغيرة إمارة كبيرة ، وتصير الإمارة الكبيرة مملكة فسيحة ، وهلم جرا . .

ثم ظهر فى المسيحيين زعيم تحنو أمامه الرءوس وترهف الأسماع . . فدعاهم جميعا إلى الكف عن قتال بعضهم بعضا ، وإلى التوجه جميعا صفًا واحدًا إلى قتال العدو المشترك . . إلى قتال أولئك المسلمين الذين يحكمون الآن فى بلاد كانت مهد المسيح .

هذا الزعيم الكبير ، هو البابا فى روما . . فقد بدأ الزحف الصليبى على المشرق ، عندما ألقى البابا أوربان الثانى خطابه المشهور ، بل أصدر أوامره إلى الملوك والأمراء قائلاً : « بأمر الله تتوقف العمليات الحربية بين المسيحيين فى أوروبا ، ويتجه الجميع بأسلحتهم إلى هزيمة المسلمين » . ثم وجه كلامه إلى المسيحيين جميعًا ، فقال : طالما أثرتم نيران الحروب والفتن فيما بينكم . . ولا خير فى هذا . . أما الآن فأذهبوا، وحاربوا البرابرة ، وخلصوا البلاد المقدسة ، وامتلكوها لأنفسكم ؛ فإنها، كما جاء فى التوراة ، تفيض لبنا وعسلاً .

وتحركت جموع المسيحيين من شتى أرجاء أوروبا ، يتقدمهم الملوك والأمراء والنبلاء والفرسان والرهبان ، زاحفين إلى الشرق . . والتقت الجموع القادمة من كل مكان فى القسطنطينية ، وقد خلفوا وراء ظهورهم خلافاتهم المذهبية مع المسيحيين الشرقيين ، وارتفع بابا روما وإمبراطور بيزنطة فوق مستوى الصراعات ، التى دامت دهرًا طويلاً ، واتحدوا جميعًا فى جبهة واحدة وساروا صفا واحدًا للقتال .

لم يكن فى العالم الإسلامى مثل هذا الزعيم . . لا دينيا ولا سياسيًّا .

فلا خليفة المسلمين القابع فى بغداد ، ولا خليفتهم الآخر فى القاهرة، فكر فى أن يفعل ما فعله البابا فى روما . . ولو فعل لما استمع إليه أحد من السلاطين والأمراء . .

وهؤلاء السلاطين والأمراء ، ليس بينهم واحد يملك من القوة والسلطة ، أو له من المكانة والهيبة ، ما يستطيع به أن يوحد هؤلاء المسلمين المشتتين المتنافرين المتقاتلين .

لم يكن بينهم الزعيم الذى يتبعه الناس ، ولا الحاكم الذى يطيعه الناس ، ولا السلطان المهيب الذى يخيف الولاة والأمراء ، فيلقون وراء

ظهورهم ما يملأ الصدور من أحقاد وأطماع ، وما يعشش فى الرءوس من مخاوف وأوهام . . ويكون من المسامين جبهة واحدة تتصدى للصليبيين الزاحفين ، وتدفع عنهم وعن أوطانهم وعن دينهم الشر المستطير .

* * *

ثم يشاء الله أن يظهر هذا الرجل بعد قرن ونصف القرن من الزمان .

بل ظهر رجل ، من بعده رجل ، ومن بعده رجل ثالث كان من أعظم العظماء فى تاريخ الإسلام وفى تاريخ العالم .

ظهر عماد الدين زنكى ، ثم مات شهيدًا ، فخلفه نور الدين محمود ، الذى وضع الأساس ، فأقام عليه خليفته صلاح الدين الأيوبى صرحا شامخًا . .

كان هؤلاء العظماء الثلاثة يؤمنون بأنه لا سبيل إلى التصدى للصليبيين، ولا سبيل إلى تحرير بلاد المسلمين ، إلا إذا اتحد المسلمون جميعًا ، وكونوا جبهة واحدة تتمثل فى دولة واحدة . . دولة إسلامية تشمل العراق والشام وفلسطين ومصر والحجاز وحتى ما وراء هذا من بلاد المسلمين جميعا . .

وآمن الثلاثة ، على اختلاف بينهم ، بأنه لا سبيل إلى تكوين هذه الدولة الإسلامية الكبيرة ، من أشتات الدويلات والإمارات الإسلامية المبعثرة الضائعة ، إلا بحد السيف . . وقطع الرقاب إذا اقتضى الأمر . . وقد مثل كل منهم هذا !

وليس معنى هذا أن أحدًا منهم كان متهورًا طائشًا ، ولا قاسيًا فاجرا . . بل كان الرجال الثلاثة أهل ورع وتقوى وإيمان . . . وكانوا مسلمين صادقين يؤمنون بأن الجهاد فريضة على كل مسلم ، حاكما كان

أو محكومًا ، وأن الجهاد فى الإسلام له مبادئه وقواعده وحدوده . . وكانوا إلى جانب هذا مخططين سياسيين ، يرسمون « إستراتيجية » سياسية وعسكرية ، لتكوين الدولة الإسلامية المتحدة . . .

ولا أستطيع ، فى هذا المجال ، إلا أن أكتب كلمة وجيزة عن كل منهم ، تشير إشارة عابرة إلى الإستراتيجية التى رسموها ، فخطا عماد الدين خطوة فى طريق تنفيذها . . ثم قطع نور الدين شوطا بعيدًا فى الطريق . . ثم مضى صلاح الدين بعبقريته السياسية وعبقريته العسكرية فبلغ الهدف . . وأقام الإمبراطورية الإسلامية العظيمة . . وكان هذا إيذانا بنهاية الحروب الصليبية وطى صفحتها من التاريخ . .

فأما عماد الدين ، فكان جنديا باسلا وقائدًا قديرًا . . فولاه السلطان السلجوقى ، الذى كان يحكم العراق وفارس وخراسان ، ولاية الموصل . . فرأى أن يجعل من هذه الولاية نواة القوة ، التى يجب تكوينها لمحاربة الصليبيين . وسير جيشه إلى عدد من المواقع المجاورة فأخذها ، ثم تطلع إلى الشام ، وهى معقل الصليبيين ومراحهم ، وإن كان فيها عدد من الأمراء المسلمين يعيشون فى حماية الصليبيين . . وسير جيشه إلى الشام ، واستولى على عدد من مدنها المهمة ، بعد أن خاض عند كل مدينة معركة دامية مع أمراء تلك المدن ومع حلفائهم الصليبيين . . . وانتصر وانهزم ، وقتل وأسر الكثيرين ، فقد من رجاله كثيرًا من القتلى والأسرى . . وحاول أن يفتح دمشق وكاد . . وصار خطرًا على الصليبيين الأوروبيين ، فاستنجدوا بالصليبيين البيزنطيين . وجاء الإمبراطور البيزنطى بنفسه يقود جيشه . . وتصدى لهم جيش عماد الدين ، وكسب منهم عددًا من المدن ، فلما قتل كانت سيطرة الصليبيين على الشام قد تزعزعت ، وتبين للمسلمين أخيرًا أن هزيمتهم ليست أمرًا مستحيلاً .

وأما نور الدين ، فقد كانت خطته أوسع مدى . . فقد تطلع إلى مصر . . وتطلع إلى إقامة دولة موحدة تضم مصر والشام . . وكان على يقين من أنه إذا امتدت يد الشام إلى مصر ، وامتدت يد مصر إلى الشام، وقام بين القطرين اتحاد متين . . . فإن هذا هو الطوق الذى يستطيع أن يطبق على الصليبيين حتى ينتهى أمرهم ، إما بالهزيمة والفناء . . وإما بالفرار .

وسير نور الدين جزءًا من جيشه إلى مصر . . واحتفظ بجزء فى الشام، حيث ظل يقاتل الصليبيين وأعوانهم . . ولم يكن فى مسيرته هذه غازيا ولا معتديا ، بل إن فريقا من حكام مصر استنجد به ضد فريق آخر كان قد استنجد بالصليبيين ! . . فهكذا كانت الأمور تجرى فى العالم الإسلامى حينذاك .

وقاد نور الدين جيشه الذاهب إلى مصر فى إحدى المرات ، فلما عاد إلى الشام ظل يفكر فى مصر . . وكان فى « غاية القهر » ، كما يقول المؤرخون. . . وإنه ظل «بعد عودته منها لا يزال يتحدث بها ويقصدها، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير » . . .

وفى المرة الثالثة وصل جيش نور الدين إلى مصر ، ودخل أرضها الشرقية ، وعبر النيل ، وعسكر الجيش فى الجيزة ، تجاه الفسطاط ، حيث يقيم الخليفة الفاطمى، ومعه وزيره من المماليك ، واسمه شاور .

واستنجد شاور بالصليبيين . . واستحثهم على المجىء إلى مصر ، كما يسجل هذا ابن الأثير . . ويسجل أيضًا أنهم « علموا أنه ، إن ملكها نور الدين وأضافها إلى البلاد الشامية ، لم يبق لهم ببيت المقدس والشام مقام ، وأنه يستأصلهم وتصير بلادهم فى وسط بلاده » .

كلام واضح كل الوضوح ، فى إدراك المسلمين ، حتى فى ذلك الوقت المظلم ، أن وحدة المسلمين فى الشمال والجنوب هى السبيل الوحيد إلى قهر الصليبيين وتخليص بلادهم . .

وشاء القدر أن يكون بين جنود نور الدين ، الذين ذهبوا إلى مصر ، جندى شاب اسمه صلاح الدين يوسف . . .

٥ ـ جدد صلاح الدين سيرة عمر بن الخطاب ودخل المسلمون بيت المقدس كما دخلوه أول مرة

شاء القدر أن يكون من جنود الجيش الذى سيره نور الدين محمود ، من الشام إلى مصر ، جندى شاب اسمه صلاح الدين يوسف .

ولم يكن صلاح الدين راغبًا فى الذهاب إلى مصر ، رغم أن الجيش كان بقيادة عمه أسد الدين شيركوه . . وطلب إلى عمه أن يعفيه من هذه المهمة ، ليبقى فى الشام مع الجند يواصلون قتال الصليبين . . منتصرين حينا ومنهزمين حينا . . ولكنهم ماضون ، على أى حال ، فى تكوين الجبهة الإسلامية الموحدة ، التى بدأت تمتد من العراق إلى الشام . ثم كانت هذه الحملة الجديدة إلى مصر ، وهى أهم وأغنى البلاد الإسلامية، فامتدت الجبهة إلى الجنوب ، وعندئذ سوف يكتمل الحصار حول الصليبيين .

وأصر أسد الدين ، على أن يسافر ابن أخيه صلاح الدين ، مع الحملة الذاهبة إلى مصر ، ولعل بصيرته قد هدته إلى أن هذا الشاب الجرىء المقدام ، التقى الورع ، سوف يرتبط قدره بقدر مصر ، وسوف يسجل صفحة من أعظم صفحات التاريخ .

وسار جيش أسد الدين إلى غزة ، فبلبيس ، فالقاهرة ، أما صلاح الدين ، فاتجه بالكتيبة التى يقودها إلى الإسكندرية . . هل فى الإسكندرية شىء يجتذب الفاتحين مثلما اجتذبت من قبل عمرو بن العاص ؟ . . لقد جاءها عمرو قبل الإسلام سائحا وتاجرًا ، فلما بدأت الفتوح الإسلامية عاودته ذكرى الإسكندرية . . فألح على عمر بن الخطاب إلحاحًا شديدًا أن يتجه إلى فتح مصر ، وتردد عمر فى هذا ترددًا طويلاً ، ثم وافق ، وولى عمرًا مهمة فتح مصر . .

ودخل صلاح الدين الإسكندرية ، وسط ترحيب أهلها الذين نقموا على الفاطميين فى الفسطاط تعاونهم مع الصليبيين . . ونقموا عليهم أنهم سادرون فى ملاذهم وملاهيهم ، معتمدين على حرس من الجند المرتزقة ، وأكثرهم من السود وبعضهم من الأرمن ! . . وكان المصريون بوجه عامٍ لا يحبون الفاطميين . . وكان صلاح الدين سنيا ، شافعيًّا ، وكان معتزًا بهذا . .

وتولى صلاح الدين حكم الإسكندرية . . وسرعان مالاحقه الصليبيون هناك ، وحاصروا المدينة حصارًا استمر أربعة شهور . . فماذا حدث؟ . . حدث أن أهل الإسكندرية صمدوا مع صلاح الدين ، وتولوا إمداد جيشه بالمئونة ، وأخذوا يتدربون على القتال إذا ما هاجمهم الإفرنج .

ولم يستطع الإفرنج مهاجمة الإسكندرية ، وأرسلوا يطلبون الصلح . . وقبل صلاح الدين ، على شرط أن يدفع الصليبيون غرامة مقدارها خمسون ألف دينار . . وعلى شرط أهم من هذا ، وهو أن يعودوا إلى بلادهم ، ولا يقيموا بالبلاد المصرية ، ولا يتملكوا منها قرية واحدة !

وقبل الصليبيون هذه الشروط ، ورحلوا . . ولابد أن صلاح الدين قد أيقن ، منذ ذلك الوقت ، أنه إذا تولى مصر فقد انفتح أمامه الطريق إلى

أهدافه : هدف تكوين الدولة الإسلامية الكبيرة الموحدة . . وهدف هزيمة الصليبيين و إخراجهم من بلاد المسلمين . .

أيقن أن مصر هى الطريق إلى هذا وهى المفتاح . . فسوف يجد فيها كل ما يلزمه ، من قوة مادية وقوة معنوية . . فمواردها كفيلة بأن تعد جيشًا عرمرما قويا ، وأن تمده وتمونه أمدًا طويلاً . . . أما روح أهلها التى تجلت أيام الحصار فى الإسكندرية ، ونقمتهم على حكام الفسطاط المتخاذلين المتآمرين مع الصليبيين ، فهما اللتان ستمكنانه من أن ينطلق إلى فلسطين و إلى الشام محاربا مجاهدًا ، حتى يدخل بيت المقدس .

ربما كان المصريون غير مدربين على حمل السيوف والرماح ، وخوض غمار المعارك الدامية ، فذلك لأنهم حرموا من الجندية قرونا طويلة ، كان فيها الحكام الأجانب ، من اليونان والرومان والفرس والعرب ، لا يطمئنون إلى ترك السلاح فى أيدى أهل مصر وتدريبهم على القتال . . فقصروهم على الزراعة والحرف وبناء القصور والمعابد والمساجد . . واعتمدوا على الجند الأجنبى من بنى أجناسهم أو من المرتزقة المأجورين . . إن كان هذا هو الأمر ، فإن صلاح الدين يستطيع أن يجند الجنود من بنى قومه الأكراد ، ومن بنى عمومتهم الأتراك . . ولكن المصريين سيظلون عمادًا أساسيًّا فى تمويل الجيش وتزويده والقيام بما يلزمه من أعمال وخدمات . .

المهم . . أن يستقل صلاح الدين بمصر ويحكمها . . ويحشد قواها ومواردها . . ثم يخرج بجيشه إلى الشام و إلى فلسطين ، ويقيم الدولة الإسلامية الموحدة ، ويحارب الصليبيين ويهزمهم ، ويطاردهم حتى شواطئ البحر . . فيفرون إلى المراكب عائدة بفلولهم إلى البلاد التى جاءوا منها منذ قرن ونصف قرن من الزمان .

وتولى صلاح الدين أمر الوزارة فى مصر . . وأخمد فيها الفتن . . وكانت هناك فتنة كبرى ، قامت بها فرقة من السودان ، كان الفاطميون يستخدمونها حرسا . . فقضى عليهم ، وطاردهم بعشرات الآلاف إلى داخل السودان ، وبسط سلطانه على مصر كلها بما فيها بلاد النوبة !

ثم زحف بجيشه إلى الشام . . واتجه إلى دمشق . . واستقبله أهلها استقبال الأبطال . . وكان صلاح الدين رجلا حكيما بعيد النظر ، وكان يدرك بحسه أن الحماسة لا تغنى عن المصلحة ، والحماسة عاطفة قصيرة المدى ، أما المصلحة فطويلة الحبال . . فأغدق على أهل دمشق مالا جزيلا . . وأمر « بإطابة النفوس وإلغاء المكوس » ، وأبطل ما أحدثه نور الدين هناك من « القبائح والضرائب » !

ثم اتجه إلى حماة . . ثم اتجه إلى حلب . . ثم اتجه هنا وهناك ، حتى دانت له سائر بلاد الشام تقريبًا عدا موقعا أو موقعين على الساحل ظل الصليبيون متشبثين بهما . .

وأعلن نفسه ملكا على الشام . . ولقب نفسه : الناصر صلاح الدين ملك مصر والشام ، وعاد إلى مصر مكتفيا بما فتح وما حقق هذه المرة . .

وكان بعيد النظر إلى أقصى الحدود ، فقدر أن الأوروبيين لن يرضوا بما حدث فى الشام ، وسوف يغيرون اتجاه حملاتهم القادمة ، وسوف يحاولون غزو مصر والاستيلاء عليها . . فإذا تحقق لهم هذا ، فإن غزو الشام وغير الشام يصير أمرًا يسيرًا . .

رأى صلاح الدين أن يحصن مصر تحصينًا قويًّا ، وأن ينظم إدارتها تنظيما جيدًا ، وانصرف إلى هذا العمل فى الفترة القصيرة بين غزوته الأولى للشام وغزوته الثانية . . فبنى الأسوار حول القاهرة . . وبنى

التحصينات على السواحل . . وبنى القلعة الحصينة فوق المقطم . . بل وحفر الآبار لتوصيل المياه للمحاربين ، إذا اعتصموا بالقلعة ، عند نجاح العدو فى الوصول إلى القاهرة .

وكان هذا البطل العبقرى بعيد النظر ، حين توقع أن يغير الصليبيون اتجاههم ، ويسيروا إلى مصر أولا ، ثم إلى الشام وفلسطين والقدس أخيرًا . . وهذا ما حدث فعلا ، ولكن بعد موت صلاح الدين ، وفى عهد خلفائه الضعاف . . ومنهم الملك الكامل ، الذى حارب الصليبيين فى بداية حكمه ، عندما نزلوا فى دمياط ، وارتدوا إلى مراكبهم مهزومين . . فلما هددوه بالعودة مرة أخرى ، انزعج وانهار . . ولم يجد وسيلة لدرء خطر الصليبيين عليه وعلى مصر إلا أن يسعى إليهم طالبا الصلح والسلام ، وأرسل إليهم الوفود تعرض عليهم ما يسمى فى هذه الأيام بمبادرة السلام . . فإذا أعطوا كلمة بألا يعودوا إلى مصر تنازل لهم عن القدس وما حول القدس . . فأعطوه كلمة جوفاء ، واستلموا القدس بلا حرب ولا عناء . . ثم عادوا بعد قليل ، فغزوا مصر بجيش جرار يقوده لويس التاسع ملك فرنسا !

وعاد صلاح الدين إلى ميدان معاركه فى الشام وفلسطين ، عن طريق غزة مرة وعن طريق العقبة مرة . . وقد قرأت أخيرًا أن جيشه اتخذ منطقة طابا قاعدة انطلق منها إلى فلسطين ، وهى المنطقة التى دار عليها نزاع بين مصر وإسرائيل . .

وفى كل غزوة ، استولى صلاح الدين على عدد من مدن فلسطين والشام تاركا بيت المقدس ، وهى قريبة منه ، فى أيدى الصليبيين !

لو أن فاتحا آخر لم يؤت من الحكمة ما أوتى صلاح الدين ، لاتجه أول الأمر إلى بيت المقدس . . فهى بيت القصيد . . وهى الهدف الذى إن

أصابه جعل اسمه يدوى فى أسماع المسلمين فى شتى الأرجاء ، حتى لو انهزم فى كل معركة أخرى وارتد أمام الصليبيين فى كل ميدان !

ولكن صلاح الدين ، أراد أن يدخل القدس مثلما دخله عمر بن الخطاب من قبل . . دون أن يريق دما . . فرأى أن يحارب الصليبيين فى كل مكان آخر ، حتى يستنفد قواهم قبل أن يتجه إلى بيت المقدس . . وخاض معارك عديدة متواصلة لا مجال للحديث عنها هنا . . فدانت له معظم المدن والمواقع . . وبقيت معركة واحدة ليفتح الطريق إلى المدينة المقدسة . . فكانت معركة حطين الحاسمة ، إحدى المعارك الكبرى فى تاريخ الإسلام .

ويكفى هنا ، أن نذكر شيئًا عن أسلوب صلاح الدين فى إدارة معركة حطين ، لنتبين كيف كان القائد الحكيم يكسب معاركه المجيدة . .

تقع حطين على طريق يؤدى إلى القدس ، وسط منطقة خضراء ، فيها زروع وبحيرة وماء كثير ، ويشرف عليها تل مرتفع يستطيع الواقف عليه أن يصوب سهامه للعدو القابع فى حطين . . فهل صعد صلاح الدين بجيشه فوق التل ؟ . . لا . . بل انتشر فى الأرض المسطحة ، وسد كل الطرق أمام العدو ، إلا الطريق الذى يؤدى إلى التل المرتفع . .

وجاء جيش العدو ، بعد أن قطع شوطا طويلا وسط أرض قاحلة ، حتى أنهكه التعب والعطش . . وابتهج صلاح الدين وقال : الحمد لله ، إنهم جاءوا بأنفسهم . . ولما وجدوا الطريق مفتوحا أمامهم إلى التل ، تقدموا وأخذوا يزحفون فوق السفح ، فازدادوا تعبا وعطشا . . وقال : نبيت ليلتنا ، حتى إذا جاء الصباح أمطرنا الأعداء وابلا من النبال والسهام . . وعندئذ ، أمر صلاح الدين فأشعلت نيران فيما يغطى سفح الجبل من أشجار وأعشاب وأخشاب . . وكان هذا فى شهر يوليو

والأرض تنفث حرا وصهدا . . فاجتمع على الصليبيين حر العطش ، وحر النار، وحر الصيف اللاهب . . وعندئذ اقترب منهم جنود صلاح الدين ، وتناولوهم بالسهام والنبال . . أو كما قال أحد المؤرخين المسلمين الأدباء : « فبلغوا ، وهم أهل التثليث ، ثلاثة أقسام من نار الدنيا : نار الضرام (حريق الأعشاب) ، ونار الأوام (العطش) ، ونار السهام » . .

وأخذ المسلمون يزحفون إلى أعلى الجبل ، والصليبيون يتساقطون قتلى وأسرى . . فلما انتهت المعركة وصفها ذلك الأديب ، أبو شامة ، فى عبارته هذه : فمن شاهد القتلى قال : ما هناك أسير ؛ ومن عاين الأسرى قال : ما هناك قتيل ! » .

وسيق من نجا من الأمراء الصليبيين إلى مخيم صلاح الدين . . فاستقبلهم استقبالا حسنا ، وأجلس ملك بيت المقدس إلى جواره ، وكان الرجل يلهث من الظمأ فناوله صلاح الدين إناء مملوءًا بالماء المثلوج، فشرب وارتوى . . ثم ناول الإناء للأمير ريجنالد ، الذى سماه العرب أرناط . . فقال صلاح الدين : لم آذن لك بإعطائه الماء ، فليس هذا بأمير ، إنما هو قاطع طريق . . ثم أخذ يذكر أرناط بما فعل ، عندما قطع الطريق على قافلة من الحجاج المسلمين ، وأسر رجالها ونساءها ، وأرسل إليه صلاح الدين يطلب إطلاق سراحهم ، فرد عليه قائلا : اطلب من « محمد » أن يخلصهم منى . . وقتل الحجيج ! . . وذكره بما فعل ، حين جرد حملة ليغير على أقدس مكانين عند المسلمين ، مكة والمدينة ، لولا أن صلاح الدين أسرع فأنزل سفنا فى البحر الأحمر بقيادة أمير البحر حسام الدين لؤلؤ ، فأسرت السفن الصليبية ومن فيها . . ثم استل صلاح الدين سيفه ، وقطع به رقبة ريجنالد هذا . . وفاء لنذره من قبل ، لئن ظفر به ليقتلنه بيده .

عندئذ ، ارتاع الأمراء الآخرون الأسرى ، فقال لهم صلاح الدين : إن الملوك لا يقتلون الملوك . . أما أرناط ، فلم يكن أميرًا ولا فارسا ، وإنما كان لصا وقاطع طريق ، فكان جزاؤه هو وأمثاله قطع رقابهم .

هذا جانب من صورة صلاح الدين فى حزمه وصرامته ، إذا كان الأمر يتعلق بمقدسات الدين وحرمات المسلمين ، كما ظهرت هذه الشدة من قبل ، عندما تولى الوزارة فى مصر ، وهو فى سن الحادية والثلاثين ، وانتزع السلطة من حرس الخليفة الفاطمى ، وكان الحرس جيشًا كبيرًا من خمسين ألفا من السود . . ومعهم فرقة من الأرمن أيضًا ! . . وقاموا بفتنة ، ليستبقوا سلطانهم وامتيازاتهم . . ففتك بهم فتكا ذريعًا ، وولت فلولهم هاربة إلى السودان . . هذا جانب من الصورة ، يقابله جانب آخر يتجلى فيه نبل الفروسية ، ويتجلى التسامح الكريم ، ويفيض بالشهامة والترفع حتى صار مضرب المثل فى هذه الصفحات السامية ، وصار محورًا لعدد من القصص التاريخية ، ومن أفلام السينما !

كان ملك إنجلترا ريتشارد ، الملقب « بقلب الأسد » ، أكبر قادة الحملة الصليبية التى جاءت فى عهد صلاح الدين ، وحدث أن أصابه المرض . . فلما علم صلاح الدين ، بعث إليه بطبيبه الخاص يداويه! . . وذات مرة دعا ريتشارد إلى حفلة ساهرة فى مخيمه . . إذ كان يجتمع مع رجال حاشيته أحيانًا يستمعون إلى الموسيقى والغناء . . فأرسل ريتشارد أنه يريد أن يحضر حفلاً فيتعرف إلى الموسيقى الشرقية وما فيها من ضرب على الدفوف والطبول . . فدعاه صلاح الدين وأقام سرادقا كبيرًا من ثلاث خيام ، وأعد من ألوان الطعام والحلوى والفاكهة ما بهر الرجل القادم من الجزيرة الإنجليزية الفقيرة ، فى ذلك الزمان . . واستمع الملك إلى المزمار والطبل ، وإلى مغنية تعزف على آلة موسيقية . . وأمضى سهرة

ممتعة . . أو كما كتب المؤرخون : « فاستحسن ملك الإنجليز ما طعم وما سمع ، وعاد إلى معسكره مسرورًا » .

وبلغ نبله وتسامحه أرفع الدرجات ، عندما دخل بيت المقدس . .

أشاروا عليه أن يقتحم المدينة ويقتل من فيها ، ويأخذ بثأر المسلمين مما فعله الصليبيون ، عندما دخلوا القدس فجعلوها « مخاضة من الدماء» . . فأبى ، وأرسل من يبلغ المعتصمين بالمدينة أن من يريد الخروج منها ، فليخرج سالما آمنا . . وأرسل إلى من كان فيها من الأميرات يعرض أن يخرجن مكرمات مصونات . . ومعهن الأمتعة والملابس وكل ما يمكن حمله ، ولتخرج مع كل أميرة حاشيتها وخدمها ، وكلهن فى أمن واطمئنان .

وفرض دية صغيرة على من يخرج من المدينة ، قدرها عشرة دنانير على الموسرين ، ودينار على الفقراء . . وخرج أحد البطارقة ودفع عشرة دنانير، ولكنه خرج فى عربة تحمل ما فى كنيسته من صور وتحف قد تكون من ذهب وفضة . . فلم يتعرض له أحد . . أما الفقراء ، فقد علم صلاح الدين أن أربعة آلاف منهم لا يجد الواحد منهم دينارًا يدفعه ، فدفع من ماله الخاص ديتهم وخرجوا من الحصار !

وكان هؤلاء المحاصرون يرحلون إلى ما بقى فى أيدى الصليبيين من مواقع وموان لم تتم تصفيتها . . وقد استمرت هذه المواقع فترة من الزمن بعد صلاح الدين ، ولكن معركة حطين ، ثم دخول بيت المقدس ، فرضا الخاتمة المحتومة للحروب الصليبية .

وخرج من القدس من كان فيه من الشيوخ والنساء والأطفال ، ولم يتبق فيها إلا حاميتها الصغيرة ، ولم يعد هناك عائق يحول دون دخول المسلمين القدس الشريف بلا معركة وبلادم يراق ، ولكن صلاح الدين

تريث ، وأخذ يطوف ومعه بعض جنده حول المدينة خمسة أيام ، وقيل إنه كان يتخير أضعف أبوابها الخمسة ليقتحمه . . ولا أظن أن هذا كان يتطلب خمسة أيام ، وهو القائد الذى كان يأخذ المدينة المنيعة بحصونها وجنودها فى يوم وليلة !

الأرجح أنه أراد أن يختار يوما معينا لدخول القدس الشريف . . فدخل يوم ٢ أكتوبر ١١٨٧ . . وكان هذا يوم الجمعة . . وكان يوم السابع والعشرين من شهر رجب . . وهو يوم له بهاؤه وذكراه : يوم الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

دخل المسلمون القدس الشريف . . واتجه صلاح الدين إلى المسجد الأقصى فصلى ، وسبح بحمد ربه واستغفر . . ثم اتجه إلى قبة الصخرة، فأنزل الصليب المعلق فوقها . .

وأراد بعض الجند أن ينتقموا من المصلين ، وأن يغلقوا كنيسة القيامة ، وأن يحيلوها إلى مسجد للمسلمين . . فأبى صلاح الدين . . وأمر بأن تفتح أبواب الكنيسة للمسيحيين ، ووافق على أن يكون فى كل كنيسة ، من الكنائس الثلاث ، اثنان من الأساقفة . . وأعلن أن من يريد أن يأتى إلى القدس حاجا فليأت آمنا مطمئناً .

وهكذا جدد صلاح الدين الأيوبى سيرة عمر بن الخطاب ، فدخل المسلمون القدس كما دخلوه أول مرة .

* * *

الفصل الثالث

معاهدة السلام مع الصليبيين

١ـ هزيمة ساحقة للصليبيين فى مصر
بعد رفضهم عرضا للسلام قدمه الملك الكامل

خرج صلاح الدين من مصر بجيشه العظيم ، فقهر الصليبيين فى أرجاء فلسطين والشام ، وتوج انتصاراته فى معركة حطين ، وتقدم منها فاستعاد بيت المقدس للمسلمين ، وأقام إمبراطوريته العظيمة التى كانت مصر قاعدتها ، والقاهرة عاصمتها . .

وارتفع اسم صلاح الدين ، وارتفع معه اسم مصر ، فى العالم الإسلامى . . وصار الناصر صلاح الدين زعيم المسلمين بغير منازع ، وكون من الإمارات والدويلات الإسلامية المبعثرة دولة إسلامية عظيمة ، مصر قلبها النابض ، وتحت رايتها ينضوى المسلمون فى المشرق من عرب وفرس وأتراك وأكراد . .

لو أن صلاح الدين لم يأت إلى مصر ، فى الجيش الذى سيره عمه نور الدين محمود . . ولو أن عمه استجاب إلى رغبة الشاب فى البقاء فى الموصل ، وأعفاه من مهمة الذهاب إلى مصر . . لربما تغير وجه التاريخ ، وما حفل التاريخ بذكر شخص اسمه صلاح الدين الأيوبى !

إنما تغير وجه التاريخ تغيرًا جذريًا ، لأن إرادة الله اقتضت أن يأتى صلاح الدين إلى مصر ، وأن يلتف حوله أهل مصر ، فينشئ فيها دولة

فتية ، أقامها على أنقاض الدولة الفاطمية . . ثم عبأ موارد هذه الدولة المصرية الجديدة ، وحشد قواها ، فكون منها قوة عسكرية ضخمة ، استطاعت أن تقهر الصليبيين ، وأن تقوض مملكتهم أو ممالكهم التى أقاموها فى ربوع فلسطين والشام ، وأن تنتزع منهم المدينة المقدسة التى كانت للمسلمين أولى القبلتين ، وفيها المسجد الأقصى الذى تشد إليه الرحال ، مثلما تشد إلى المسجد الحرام فى مكة ، وإلى المسجد النبوى فى المدينة .

إذن ، فقد استمد صلاح الدين قوته هذه من مصر . . وإذن فالخطر الذى دهم الصليبيين وهزمهم كان قادما عليهم من مصر . . فلابد إذن أن يفكر الصليبيون تفكيرًا جديًّا فى أن ينتقموا من مصر . . وأهم من الانتقام هو اتقاء خطر مصر . . فإذا استطاعوا أن يقهروها ويسيطروا عليها ، صار فى وسعهم أن يعودوا إلى فتح بلاد المشرق ثانية ، وأن يستولوا على بيت المقدس مرة أخرى . .

واستقر فى أذهان الصليبيين ومشاعرهم ، أن غلطتهم الكبرى فى الماضى أنهم لم يتجهوا إلى مصر أولا . . وأن يقهروها ويحكموها ، فإذا انتهوا من هذا ، اتجهوا إلى البلاد الإسلامية الأخرى ، ففتحوها دون عناء كبير ، ثم استقروا فيها وأقاموا قلاعهم وحصونهم ، وأقاموا ممالكهم وإماراتهم ، دون أن يتعرضوا لأخطار داهمة تنزل عليهم من مصر . .

وصارت صيحة الصليبيين فى أوروبا : إلى مصر أولا . . إن مصر هى الطريق إلى بيت المقدس !

وصار دعاة الصليبية فى أوروبا ، يطلقون على مصر أوصافًا تثير الغيظ أو تثير الحماسة . . فمنهم من يقول إن مصر هى رأس الأفعى . ومنهم من يقول إن مصر هى بمثابة القلب فى الجسم الإسلامى . . وكلهم

مجمعون على أن مصر هى المصدر الذى يستمد منه العالم الإسلامى قوته ومئونته وإمداداته . . .

ولم تكن هذه الحقيقة غائبة عن عقول المسلمين أيضًا ، فقد سجل مؤرخوهم المعاصرون ، أن الصليبيين تشاوروا فيما بينهم واختلفوا . . وأن عقلاءهم نصحوا بقصد الديار المصرية أولا . . وقالوا : « إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك ، وأخرج القدس والساحل من أيدى الإفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها ، فالمصلحة أن نقصد أولا مصر ونملكها ، وعندئذ لا يبقى مانع من أخذ القدس وغيرها من البلاد » . .

كلام كتبه وكرره المؤرخون المسلمون الذين عاصروا الحروب الصليبية . . مما يدل على أن الصليبيين والمسلمين ، على السواء ، كانوا مقتنعين بأن مفاتيح بيت المقدس فى القاهرة . . . وأن الاستيلاء على مصر يجب أن يسبق أية محاولة لدخول بيت المقدس . . وأن من لا يملك مصر لا يستطيع أن يستقر فى فلسطين والشام . .

* * *

وهكذا استقر رأى الصليبيين على أن يركزوا هجومهم على مصر . . وكان أكبر الدعاة إلى هذا ، والقائمين على تنفيذه ، هو ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد . فقد رأى بعينيه أن القوة التى هزمت الصليبيين قد خرجت عليهم من مصر ، وأن جيش صلاح الدين وإن كان أغلب فرسانه وعساكره من الأتراك والأكراد ، إلا أن سلاحهم وذخيرتهم ، ومئونتهم وإمداداتهم ، كانت من مصر . . وكانت لا تنفد ولا تنتهى .

ولكن كيف يهاجم الصليبيون مصر ، وقد انهارت قواعدهم وتشتت قواتهم فى فلسطين ، فلم يعودوا قادرين على أن يتقدموا جنوبا على

ساحل البحر الأبيض ، ويدخلوا مصر كما دخلوها من قبل فى عدة حملات استطلاعية يكتشفون فيها مسالك الهجوم على مصر من الشرق والشمال ؟ ورأى الصليبيون أن يكون هجومهم على مصر هجوما بحريا عبر البحر الأبيض المتوسط .

كانت القيادة المصرية تظن أن الصليبيين سيأتون من الشرق ، فإذا بهم يأتون من الشمال . . !

جاءوا فى أسطول كبير ، اشتركت فى جمع سفنه وبحارته ، موانى جنوه وبيزا والبندقية فى إيطاليا ، وتبعته سفن أخرى شاركت بها الموانى الأوروبية فى فرنسا وإسبانيا . وسرعان ما تدفق آلاف من البحارة والمقاتلين والتجار والرهبان على دمياط ، أكبر موانى مصر فى ذلك الوقت . . واحتلوا المدينة وأعملوا فى أهلها السيف ، وفجروا . .

وكان طبيعيا أن يفزع الملك العادل ، أحد أبناء صلاح الدين ، من هول ما سمع وعرف . . فأصابته نوبة ، ومات محسوراً بعد بضعة أيام .

وخلفه ابنه الكامل فى حكم مصر ، فاستهل الشاب حكمه ، وهو يرى الخطر الصليبى زاحفًا على عاصمته ، مستهدفا مملكته . . فداخله الخوف أول الأمر ، حتى أنه فكر فى أن يترك الملك ، ويهرب من مصر ، ويلجأ إلى ابن له يحكم اليمن ، فقد كان هذا نصيبه من تركة صلاح الدين .

ثم عاد الملك الكامل ، فتغلب على مشاعر الخوف ، وقرر أن يحارب . . وأن يقاوم الغزاة الذين بدءوا يستعدون للخروج من دمياط والزحف إلى القاهرة . .

وراح يستنجد بالمسلمين من حوله ، فغزو مصر هو الخطوة الأولى :

والكبيرة ، فى غزو بلادهم جميعا ، فأرسل إلى أخيه الملك المعظم الذى يحكم الشام طالبا النجدة . . وأرسل سبعين سفيرًا إلى سائر المسلمين . . وراح كما ذكر المؤرخون : « يستنجد بأهل الإسلام على قتال الإفرنج » ، ويستحثهم على إنقاذ المسلمين ، وإغاثتهم ، ويخوفهم من تغلب الفرنج، على مصر ، فإنهم متى ملكوها لا يمتنع عليهم شىء من الممالك بعد هذا .

ولكن حكام المسلمين ، كانوا فى هول ما بعده هول ، وفزع ما بعده فزع ، فى تلك الآونة بالذات ! فقد حدث حدث خطير جدًّا لا تقل خطورته عن الحرب الصليبية نفسها فى أيام عنفوانها !

لقد بدأت جحافل المغول ، يقودها جنكيزخان ، تزحف من أواسط آسيا مجتاحة ما أمامها من بلاد وآفاق . . وبالسرعة التى تركض بها جياد هؤلاء المقاتلين الأشداء ، سقطت بلاد فارس ، وسقطت بخارى ، وبدأت مدن العراق تسقط . . واستولى الفزع والرعب على أهل الشرق جميعًا ، عندما ترامت إلى أسماعهم أخبار ما تنزله هذه الجحافل من تقتيل وتدمير . . وصار كل حاكم من حكام تلك البلاد مشغولا بأمره عما يجرى فى مصر ، ولا يستطيع ، حتى لو أراد ، أن يمد يد النجدة للملك الكامل فى ذلك الوقت العصيب ، حين بدأ الصليبيون يحشدون قواهم ، ويتلقون مزيدًا من الإمدادات عبر البحر ، ويتأهبون للزحف على القاهرة .

فماذا يصنع الملك الكامل تجاه هذا كله ؟

هل من وسيلة يحمى بها مصر ، ويحمى بها نفسه ، من هذه الهجمة الصليبية المخيفة ؟

وفكر وفكر . . واستشار واستخار ، ثم تراءى له ، أنه ما من سبيل

أمامه إلا أن يتصل بالصليبيين ، ويفاوضهم ويساومهم ، لعلهم يرجعون عن مصر إذا عرض عليهم عرضا سخيا . .

وبعث إليهم بعالمه وقاضيه ، الشيخ فخر الدين بن صدر الدين ، يحمل رسالة سرية إلى الإمبراطور فردريك الثانى ، الذى كان قد عاد إلى الشام وعسكر فى بعض أطرافها . . وكانت الرسالة تتضمن عرضا سخيا!

عرض الملك الكامل أن « يتنازل » للصليبيين عن بيت المقدس ، مقابل أن يخرج الصليبيون من دمياط !

وكانت بيت المقدس ، كما ذكرنا من قبل ، تحت حكم السلطان الكامل . . فقد كان نصيبه ، أو نصيب أبيه ، من إمبراطورية صلاح الدين نصيبًا كبيرًا ، يشمل مصر ويشمل القدس ، لأنهم رأوا من يحكم مصر هو أقدر من غيره على حماية القدس . .

ولم يتردد الإمبراطور فى أن يقبل هذا العرض السخى . . وقدر أن هذا نصر كبير للصليبيين ، بعد تلك الحروب الطويلة التى استمرت حتى ذلك الوقت أكثر من قرن طويل من الزمان (١٠٩٦ إلى ١٢٠٨) . . ثم إن مرحلة الانتصارات المتوالية قد ولت ، ودخلوا فى مرحلة من الهزائم والانكسارات . . فإذا جاءتهم القدس غنيمة بلا حرب ولا عناء ، فهذا هو النصر الكبير . . ولهذا فقد عاد الشيخ فخر الدين إلى الملك الكامل، يحمل الهدايا ، ويحمل رسالة من الإمبراطور فردريك بأنه يقبل هذا العرض ، وسيبذل جهده عند الصليبيين لكى يجلوا عن دمياط ويرحلوا عن مصر . .

ولكن البابا فى روما رفض هذا العرض . . ووبخ الملك فردريك على قبوله ، وأصدر ضده قرار الحرمان ! . . لماذا ؟ لأن هذا العرض لا يكفى، ولأن أخذ بيت المقدس وحده لا يكفى . .

وعندئذ ، اضطر الملك الكامل أن يتقدم بعرض أسخى . . فقد اتخذ لنفسه طريقا جعل الصليبيين واثقين من أنه ضعيف متهافت ، وأنه لا يجد أحدا يمد له يد المعونة والنجدة ، فراح الصليبيون يستغلونه ويبتزونه إلى أقصى الحدود .

وعرض الملك الكامل أن « يتنازل » عن القدس وعما حولها ، أى عن بيت لحم وعن الناصرة أيضًا ، ولكن هذا مازال غير كاف ، فعرض التنازل عن مدن أخرى ، نابلس . . صيدا . . عسقلان . . طبرية . . اللاذقية وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل ! !

ولكن البابا رفض كل هذا ، وهدد فردريك بأن ينزع منه مملكته فى أوروبا ، ويثير عليه رعاياه هناك ، ويجعله ذليلاً محروما فى كل مكان ، إذا قبل أن يعقد صلحا مع المسلمين .

واضطر فردريك أن يسحب موافقته على العرض الذى جاءه من الملك الكامل . . بل إنه أرسل رسالة يعتذر فيها إلى الكامل عن عدم استطاعته قبول عرضه ، ويعتذر عن عدم مساعدته فى إجلاء الصليبيين عن دمياط !

لم يبق أمام الملك الكامل إلا أن يقاوم قدر ما يستطيع . . .

وكان أخواه فى الشام ، قد سمعا بما جرى بينه وبين فردريك ، وأنه على وشك أن يبيع القدس مقابل المحافظة على ملكه فى مصر . . فأرسلا إليه يحثانه على مقاومة الصليبيين وقتالهم ، وأن يأخذ نفسه بالثبات ريثما يقدمان كل منهما على رأس كتيبة تشد أزره وتحارب فى صفه .

وتشجع الملك الكامل ، وخرج من القاهرة قاصدًا دمياط ليعيد الصليبيين الذين بدءوا يتحركون صوب القاهرة . . وكان جيش الكامل

كبير العدد ، اشترك فيه أهل الدلتا وأهل الصعيد ، مما يدل على أن المصريين كانوا راغبين ، حتى ذلك الوقت ، فى قتال الصليبيين ، حتى وإن لم تأتهم نجدة أو معونة من البلاد الإسلامية الأخرى . . ورغم أن أخوى الملك الكامل ما لبثا أن عادا إلى الشام خوفا على أملاكهما التى اقتربت منها سنابك خيول المغول !

كان الموقف ينبئ بانتصار الصليبيين ؛ فهم أكثر سلاحا وعدة ، وهم قد مرنوا على الحرب والقتال فى سلسلة طويلة من المعارك . . ولكن يشاء الله أن تخطئ القيادة الصليبية خطأ فادحا ، لأنهم لا يعرفون طبيعة الأرض المصرية ، وما تمتلئ به من قنوات الماء ، ومن بحيرات عند مصب النيل . . فما إن تقدموا قليلاً حتى وجدوا أنفسهم محاصرين فى منطقة تحيط بها المياه من ثلاثة جوانب ، البحر والنيل وبحيرة المنزلة . . وعندئذ قطع المصريون سدود المياه من كل جانب ، فتدفقت وأغرقت القوات الصليبية فى بحر من المياه . . وكان المصريون قد أغرقوا عددا من السفن فى مجرى فرع النيل ، حتى لا يبحر فيه الأعداء فى زحفهم إلى القاهرة . . وهكذا أحيط بهم من كل جانب ، وتوقفوا لا يستطيعون تقدما ولا تراجعا ، لا على اليابسة ولا فى مجرى النهر .

وبعد جهد وعناء ، شقوا طريقا وسط الأرض الموحلة ، مرتدين إلى الشاطئ ، واستقلوا سفنهم عائدين إلى بلادهم سنة ١٢٢١ . وكانت تلك خاتمة الحملة الصليبية الخامسة ، أفشل حملاتهم جميعا . .

وهكذا سلمت مصر من الغزوة الصليبية ، دون أن تفقد شيئًا من أملاكها ، ودون أن يضيع القدس الشريف من المسلمين . . وكما قال ابن الأثير : « إن الله تعالى آتى المسلمين ظفرًا لم يكن فى حسابهم ، فإنهم كانت غاية أمانيهم أن يسلموا البلاد لهم بالشام ، ليعيدوا دمياط . .

فرزقهم الله إعادة دمياط ، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها » .

فهل أفاد الملك الكامل من هذا النصر الذى تم بمشيئة الله ، وبمهارة المصريين فيما رسموه من خطة لوقف زحف الصليبيين ، وما أقاموه من سدود حجزت المياه ، ثم قطعوها فتدفقت على الأعداء وأغرقتهم من كل جانب ؟

لا . . لم يفد الملك الكامل شيئًا . . بل ظل على خوفه من الصليبيين وعودتهم ، وظل يلوح لهم برغبته فى الصلح والسلام ، وظل يلح عليهم أن يأخذوا بيت المقدس مقابل أن يتركوه آمنا ومطمئنًا . . وأخيرًا قبل فردريك الثانى عرض الملك الكامل ، وتسلم منه القدس !

٢ ـ الصليبيون فى شقاق وانقسام والمسلمون فى حزن على القدس

الصليبيون انقسموا ثلاث فرق . .

فريق وراء الإمبراطور فردريك الثانى ، يرى أن يقبل العرض السخى الذى قدمه الملك الكامل ، فيأخذ بيت المقدس ويقيم فيه المملكة الصليبية مرة أخرى ، مقابل جلاء الصليبيين عن مدينة دمياط . . وقالوا إننا لم نزحف من أوروبا إلى الشرق لنأخذ دمياط ، ولا لنأخذ مصر ، وإنما جئنا لنفتح بيت المقدس ، ونخرج منها المسلمين ، ونقيم فيها مملكة مسيحية يأتى إليها الحجاج المسيحيون آمنين . . وهاهم أولاء المسلمون يعرضون علينا ما تمنيناه ، بلا حرب ودون عناء .

فريق آخر يتبع البابا (جريجوريوس) ، ويرى أن بيت المقدس غنيمة طيبة ، ولكنها لا تكفى . . فأين بيت لحم ؟ وأين الناصرة ؟ وأين هذه الأماكن المقدسة التى ولد فيها المسيح ، وعاش وعاشت فيها مريم ، وبشر فيها بالمسيحية ، ووقف إلى جانب المضطهدين ، وواجه طغيان الرومان وغدر اليهود ؟ . . . إنا لا نقبل صلحا مع المسلمين ، إلا إذا أخذنا بيت المقدس وكل ما حوله من أماكن مقدسة ، ومن بلاد وثغور نؤمن طريق الحجيج إلى هذه الأماكن المقدسة .

وفريق ثالث أكثر مغالاة من فريق البابا . . إنه يرى أن كرامة المسيحية ألا يؤخذ بيت المقدس عن طريق « تنازل » المسلمين ، بل ينبغي أن يؤخذ بحد السيف . . فلما جاءت جموع الصليبيين زحفا من أوروبا ، وما حاربت وقاتلت ، فمات منهم الآلاف والآلاف ، لكى يقفوا فيتصدق عليهم المسلمون ببيت المقدس . . إنما جاءوا مدججين بالسلاح ، وأقدموا على الموت فى معارك لا تنتهى ، لكى يروعوا هؤلاء المسلمين . . ولينتزعوا منهم كل ما للمسيحيين من مقدسات . . وليضعوا حدًّا لا يتعداه المسلمون أبدًا .

* * *

أما المسلمون فكانوا فى هم وغم . .

إنهم يتهامسون ، فيتسامعون أن سلطانهم الملك الكامل يهم بأن يفعل ما لم يفعله أحد من المسلمين من قبل . . . وأنه يفاوض الصليبيين سرًّا ، ويعرض عليهم أن يترك لهم بيت المقدس ! . . هل حارب صلاح الدين وحاربنا من ورائه ، وضحينا ما ضحينا من دمائنا وأقواتنا لكى نسترد بيت المقدس ، ثم يأتى علينا هذا اليوم فنتركه غنيمة رخيصة للصليبيين ؟ هل حاربنا وجاهدنا ، حتى أقام صلاح الدين إمبراطورية إسلامية تشمل مصر والشام وفلسطين والحجاز واليمن ، ثم ورثها أبناؤه وأبناء إخوته فأصاب منها الملك الكامل مصر والقدس ، ثم تخر قوانا وتنهار عزيمتنا ، فلا نستطيع أن ندافع عن بلادنا إلا بالتنازل عن القدس الشريف ؟

وواقع الأمر حينذاك أن المسلمين قد خارت قواهم ، وانهارت عزيمتهم فعلا . . . وصاروا جميعا فى المشرق والمغرب فى حال تدعو إلى الرثاء . . .

فأما المسلمون فى المشرق ، فهم الآن أكثر فزعا ورعبا ، وأكثر تشتتا وفرقة ، مما كانوا فى إبان الحرب الصليبية وفى أوج انتصارها . . فقط هبط على المسلمين من هم أشد شراسة وفتكا . . . هبطت عليهم جحافل المغول ، وكأنها عواصف وأعاصير تجتاح وتقتلع كل ما أمامها . . وسقط المسلمون آلافا وعشرات الآلاف ، تحت سنابك خيل المغول الذين أعملوا سيوفهم فى الرقاب ، ثم دمروا وخربوا وأحرقوا الأخضر واليابس جميعا . . . ولم يبق فى ذلك العالم الإسلامى من يستطيع أن يتصدى لهؤلاء الغزاة المكتسحين ، بل راح حكام المسلمين وأمراؤهم يرتمون أمام جحافل المغول ، مثلما كانوا يرتمون من قبل أمام جموع الصليبيين ، ويسلمون لهم بلادهم وديارهم اتقاء لشرهم والتماسا لمرضاتهم . .

فأنى لهم ، وهذه حالهم ، أن يتقدموا بالنجدة إلى الملك الكامل إذا ما هم الصليبيون بغزو مصر كما فعلوا من قبل ؟

وأما المسلمون فى مصر ، وهم مناط الأمل فى العالم الإسلامى ، فقد أخذوا يشعرون ، ويقولون أيضا فيما بينهم ، إنهم حاربوا الصليبيين أكثر مما حاربهم أى قوم آخرين . . وإن بلادهم حملت من أعباء مقاومة الصليبيين ومحاربتهم أكثر مما حملته سائر البلاد الإسلامية الأخرى . . فهم الذين أعدوا جيش صلاح الدين ، ومونوا حروبه الطويلة المتلاحقة . . وقد أرهقتهم هذه الحروب وأفقرتهم ، حتى صارت مصر فى السنوات التى أعقبت صلاح الدين تعانى من مجاعة مخيفة ، بعد أن كانت هى أغنى بلاد المسلمين وأكثرها خيرًا . . .

أين أيامهم الآن من أيامهم فى عصر الفاطميين ؟ حين لم تكن هناك حرب ولا تقشف ولا حرمان . . وإنما كان هناك الترف والبذخ يعيش فيه الأغنياء ، ويفيض خيره على الفقراء ، فنعم فيه الناس كلهم بملذات

الحياة . . وخاصة بملذات الطعام . . فقد أكثروا منه وافتنوا فيه ، حتى صارت صنوف الطعام والحلوى جزءًا من التراث الفاطمى الذى ما يزال باقيا فى مصر حتى الآن .

أما الآن ، وبعد حروب صلاح الدين الأيوبى وانتصاراته العظيمة ، فإن مصر تعيش فى شظف بلغ حد الجوع . . بل كانت هناك مجاعة فعلا . . مجاعة ، تحدث عنها المؤرخون حديثا يثير فينا شعورًا بالدهشة وبالألم حتى الآن . . رغم أنه انقضى عليها قرون وقرون . .

لقد جاء المؤرخ الرحالة عبد اللطيف البغدادى إلى مصر وأقام فيها عدة سنوات ، حتى غادرها سنة ١٢٠٥ ، أى قرابة الأيام التى رأى فيها الملك الكامل أن يستسلم للصليبيين . . فكتب وصفا مفزعًا مروعًا لما كان عليه حال الناس فى مصر . . نذكر من هذا الوصف أجزاء ، ونغفل أجزاء أخرى أكثر بشاعة :

« وقد يئس الناس من زيادة النيل ، وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد ، وأشقى أهلها البلاء ، فهربوا من خوف الجوع . .

« وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن ، وتفرقوا فى البلاد أيدى سبأ ، ومزقوا كل ممزق .

« ودخل إلى القاهرة منهم خلق عظيم ، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت . . .

« واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث . . ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بنى آدم ، وكثيرًا ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون ، فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل » .

ثم يروى البغدادى حوادث كثيرة مروعة شاهدها بنفسه عن الأوبئة التى تفشت فى الناس ، فصارت شوارع القاهرة ورحابها أشبه بمقابر مكشوفة تتكدس فيها جثث الموتى . . وفى الريف ، « فإن المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخ ضرمة (نار الطهى أو الخبز) ويجد البيوت مفتوحة وأهلها موتى . . » .

ويقول البغدادى ، الذى كان مدققا فى أخباره ، إن الجارية الحسناء كانت تعرض بدراهم معدودة . . وقد عرض عليه جاريتان مراهقتان بدينار واحد ، وإن امرأة سألته أن يشترى ابنتها ، وكانت دون البلوغ بخمسة دراهم . . ثم يقول : « إن النساء والولدان من مصر قد وصل سبيهم إلى العراق وأعماق خراسان » .

صورة مفزعة لا نريد أن نمضى فيها أكثر من ذلك ، فهى من بشاعتها ما تزال تثير فينا الغثيان . .

وهكذا كانت الصورة أمام الملك الكامل قاتمة من جميع الجوانب . . .

وزاد الصورة قتاما ، أن الصليبيين استطاعوا أن يستجمعوا قواهم ويستردوا بعض مدن الشام ، وجاء الملك فريدريك الثانى من أوروبا مصمما العزم على أن يسترد بيت المقدس . . أى ينتزعه من الملك الكامل ، الذى كان قد ورث ، فيما ورث من إمبراطورية صلاح الدين ، حكم مصر وحكم فلسطين . .

وقد جاء أولئك الصليبيون الجدد لا بدافع الغيرة الدينية ، وإنما يدفعهم شعور عنيف بالرغبة فى الأخذ بالثأر من هزيمتهم فى حطين ، وانهيار معاقلهم وإماراتهم أمام صلاح الدين . . ورغبة الإنسان فى الانتقام من عدوه ، إذا استبدت بمشاعره ، دفعته إلى القتل دون أن يبالى

بأى شىء . . وقدتصل به إلى حد الهوس والجنون . . والإنجليز يقولون فى كلامهم الجارى : الحياة جميلة ، ولكن الانتقام أجمل !

وفضلا عن هذا كله ، فقد أخذ الصليبيون فى أوروبا يشنون على الملك الكامل « حرب أعصاب » ، كما يجرى التعبير الحديث . . فهناك إشاعات بأن أساطيل تعد فى موانى أوروبا ، وسوف تحمل الآلاف ، متجهة إلى شواطئ مصر . . وإنهم قد عقدوا العزم هذه المرة على ألا يتوقفوا دون القاهرة . . . ودون أن يقع الملك الكامل أمامهم مقتولا ، أو فى أيديهم أسيرًا . . .

فماذا يصنع الملك الكامل تجاه هذا كله ؟

فكر وفكر . . واستشار واستخار . . . وقرر أن يغامر ويجازف . . فيقوم بمبادرة سلام مع الصليبيين ! . . ويعقد صلحا نهائيًا مع الصليبيين ، وليكن ما يكون . . .

ويروى المقريزى ما حدث فيقول : إن الملك الكامل أرسل رجاله ، «فنودى بالقدس بخروج المسلمين منه وتسليمه إلى الفرنج » . . «فاستعظم المسلمون ذلك ، وأكبروه ، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه » . . « فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل ، وأذنوا على بابه فى غير وقت الأذان » .

ويمضى المقريزى فيقول : « فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء » ، واشتد الإنكار على الملك الكامل ، « وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار » .

وأقيمت المآتم فى المدن الإسلامية ، وألقيت فيها قصائد الشعر فى رثاء

القدس . . . أو كما يقول أحد المؤرخين المسلمين : « قامت القيامة فى جميع بلاد الإسلام ، واشتدت العظايم بحيث إنه أقيمت المآتم » .

وأراد السلطان الكامل أن يهون من أمر تسليم القدس للصليبيين ، ويخفف من وقع هذا على المسلمين ، فأخذ أنصاره ودعاته يدبجون الأقوال ويبثونها بين الناس دفاعًا عما فعل . . وكان للملك الكامل حاشية كبيرة من الأدباء والشعراء والمغنين والظرفاء . . وكان يسهر معهم طويلاً ويغدق عليهم كثيرًا . . وكان له أيضًا حاشية من الشيوخ والفقهاء يتبرك بهم . ويتبركون به . . بل كانوا ينامون قريبًا من مضجعه، فقد يحتاج إلى أن يستشير أحدا منهم فى ساعة مظلمة من الليل . . .

وراحت تلك الحاشية من الأدباء ، تقوم بعملية الدعاية ، وتبرر ما فعله الملك الكامل ، ونقول إن ما تنازل عنه للصليبيين لم يكن إلا «كنائس وأديارًا خرابًا . . والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم . . ووالى المسلمين يتحكم فى الأعمال والضياع » .

ودخل فردريك القدس ، واستلمها من القاضى شمس الدين . . وفى يوم الأحد ١٨ مارس ١٢٢٩ ، دخل كنيسة القيامة وتوج نفسه ملكا على القدس . . . ثم ذهب إلى زيارة المسجد الأقصى ، فلم يسمع أذان المسلمين للصلاة . . . . فسأل . . فقيل له إن الملك الكامل أمر بألا يؤذن للصلاة طوال إقامة الإمبراطور فى القدس ، مجاملة له وإكرامًا . . فقال فردريك « لقد كان أكبر غرضى فى المبيت فى القدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم بالليل ! » .

وهكذا ، حقق الإمبراطور فردريك نصرًا ، فشل دونه أعظم ملوك الصليبيين ، ريتشارد قلب الأسد . . ولم يعد البابا قادرًا على الاستمرار فى إعلان سخطه على فردريك الذى صار بطلاً فى أعين الأوروبيين . .

فصفح عنه ! ورضى عليه ! . . وقال إن فيما حصل عليه فردريك مزايا لا يستهان بها . . .

فهل كان الخلاف بين البابا وبين الإمبراطور ، مسرحية مثلها الجانبان؟ هل كان تعنت البابا واتهامه فردريك بالتساهل والتفريط مع المسلمين تمثيلاً ؟

وهل كان إصرار البابا على أن يأخذ أكثر ما يمكن ، وتظاهر فردريك بقول « أقل » ما يمكن . . مسرحية أوهما بها الملك الكامل أنه إذا لم يستجب إلى مطالب المعتدلين ، فسوف يأتى الغلاة المتشددون ، فيستأنفون القتال . . ويعودون إلى غزو مصر . . وهو الأمر الذى يريد العادل أن يتفاداه مهما كان الثمن الذى يدفعه المسلمون ؟

وبعد ، فماذا كسب الملك العادل من « تنازله » عن بيت المقدس ؟ !

* * *

٣ ـ طويت صفحة حروب الصليبيين ليعودوا إلى الشرق بعد ستة قرون !

ماذا كسب الملك العادل من « تنازله » للصليبيين عن بيت المقدس ؟!

هل كف أيدى الصليبيين عن بلاده ؟ وهل حمى مصر من الهجوم الصليبى ، وهو الذى كان يرتعد عندما كان يسمع أن الصليبيين يستعدون لغزو مصر مرة أخرى ؟

هل استقر السلام بين الصليبيين والمسلمين ؟ أو حتى بين الصليبيين والمصريين ؟ وهل كانت المعركة التى دارت فى دمياط آخر الحروب وبداية السلام ؟

هل استتب الأمر له ؟ فحمى عرش الأسرة الأيوبية ، واستقر أولاده فى حكم مصر ، بعد أن غسل يديه من مشكلة القدس ومشاكل المسلمين ، وصار صديقًا للإمبراطور فردريك يتبادل معه الرسائل والهدايا ؟

لقد عاش الملك الكامل تسع سنوات ، بعد أن عقد صلح يافا مع الصليبيين ، وتنازل لهم فيه عن بيت المقدس وما حولها من مدن ، منها بيت لحم والناصرة وصيدا وبلاد أخرى . . ولا ندرى هل عاش هذه السنوات رضى النفسى مطمئن الضمير إلى ما فعل . . أم هل أحس بأنه

فرط فى حق نفسه ، وحق دينه ، وحق مصر ، كلما ترامى إلى سمعه أن الصليبيين ما زالوا يفكرون فى غزو مصر والانتقام من هزيمتهم السابقة فى دمياط . . وتنفيذًا للخطة التى استقر عليها رأيهم ، وهى أن يضربوا مصر أولا ، وعندئذ تنفتح أمامهم أبواب فلسطين ، والشام والمشرق الإسلامى كله ؟

ما نعرفه من كتب التاريخ والأدب ، أن الملك العادل فقد هيبته عند الناس . . . وأنهم راحوا يتهامسون عن حياته الخاصة ، وعن علاقته بمغنية اسمها « عجيبة » . .

ثم ارتفع الهمس ، وصار حديثًا شائعًا بين الناس ، حتى أن قاضى القضاة فى مصر أصدر حكما بأن شهادة الملك الكامل لا تقبل !

كانت أمام القاضى قضية ما . . وكانت تهم الملك بصفة خاصة . . فجاء شاهدًا ، فقال القاضى شرف الدين محمد بن عبد الله الشافعى . إن السلطان يأمر ، ولا يشهد . .

وأصر الملك على الإدلاء بشهادته ، وسأل القاضى : هل تقبل شهادتى أم لا ؟ فرد عليه القاضى بكل شجاعة : لا . . لا أقبل شهادتك . . وكيف أقبلك و « عجيبة » تطلع إليك بجنكها (لباس الرقص) ، كل ليلة ، وتنزل ثانى يوم بكرة ، وهى تتمايل . . وينزل فلان وفلان من عندك أبخس مما نزلت « عجيبة » ؟ ! . .

وغضب الملك واهتاج . . وصاح بالقاضى : ياكنواخ ! . . وهى كلمة شتم . . فقال القاضى : ما فى شريعة الله كنواخ ! . . اشهدوا أنى قد عزلت نفسى . . ثم نهض القاضى من مجلسه واعتزل منصب القضاء . .

وجاءت حاشية الملك مرتعدة ، وقالت للملك الكامل إن الأمر سوف يبلغ الخليفة فى بغداد الذى ما تزال له السلطة الشرعية فى مصر ، يخطب له فى صلاة الجمعة ، ويعين قاضى القضاة ، ويخلع على سلطان مصر الصفة الشرعية . . ونصحوا الملك أن يترضى القاضى ويعتذر إليه . . واستمع الملك الكامل إلى رأى الحاشية كما كان يفعل دائما .

ولكن مفتى الديار المصرية ، واسمه تاج الدين بن تقى الدين السبكى ، قد أفتى بأن الفسق لا يعزل السلطان !

أى أن المفتى كان يعلم ما يشيع بين الناس جميعا ، عن أمور السلطان . . ولكنه كان يرى أن الفسق ليس سببا كافيا لعزل السلطان . . ولم يبين سماحته فى فتواه : ما هو السبب الذى من أجله يجوز عزل السلطان ، ما دام الإسلام يجيز فى نظره بقاء السلطان الفاسق ؟!

أما أن السلطان يأمر ولا يشهد ، فلا أظن أن هذا فى شريعة الإسلام الذى حرم كتمان الشهادة . . ولم تقل الشريعة إن الكتمان حرام إلا على الملوك والسلاطين ! . . ولكن ما زالت قوانين الدول الإسلامية ، أو بعضها ، تنص على أن رئيس الدولة معفى من أداء الشهادة أمام القضاء ، حتى لو طلب أحد المتقاضين الاستشهاد به .

تلك صورة تدل على ما صار إليه حال الملك الكامل ، بين رعاياه وبين الصادقين من علماء الدين . . نزلت هيبته ، وتضعضع ملكه . . بل كانت هذه هى بداية النهاية لحكم الدولة الأيوبية فى مصر ، فما هى إلا سنوات قلائل ، حتى زال الملك عن الأيوبيين ، وورثهم المماليك .

ومات الملك فى سنة ١٢٣٩ ، ودفن فى ضريح أنيق مزخرف مازال قائماً فى حى الخليفة ، أحد أحياء القاهرة القديمة . . وكان هذا الضريح هو آخر ما بقى من الرجل ، الذى كان الوريث الأكبر من إمبراطورية صلاح الدين الأيوبى ، فبدد الميراث العظيم هباء .

ولكن الأدباء والشعراء والظرفاء ، الذين كان الملك الكامل يغدق عليهم المال والعطايا ، فيغدقون عليه الكلام مديحا وتعظيماً وتمويها . . قد خجلوا من أن ينقلبوا عليه بعد وفاته بالسب والهجاء ، وظل بعضهم يطلق عليه أوصافا طيبة ، ومنها أوصاف الورع والتقوى ، والمهابة والوقار . فالكاتب المؤرخ أبو الفداء مثلا ، قال : كان « ملكا جليلاً مهيبا ، حازما حسن التدبير » . . ولكن لم يقدم للناس دليلاً على التقى والورع ، بينما رائحة المغنية « عجيبة » ومثيلاتها تفوح بين الناس . . أما المقريزى فقد أفاض فى الحديث عن حب الملك الكامل للأدب والأدباء ، والعلم والعلماء ، وعن مراسلاته مع الملك فردريك ، الذى كان هو أيضًا محبا للأدب والعلم . . وشتان ما بين علم كان فردريك يحبه فى عصر بدأت فيه تباشير عصر النهضة الأوروبية ، وعلم يحبه الملك الكامل فى عصر مظلم تدهورت فيه الثقافة الإسلامية إلى درك بعيد . .

ولم يكن مديح الأدباء والشعراء والظرفاء للملك الكامل ، عند وفاته وبعدها ، دليل وفائهم . . وإنما هى عادة النفاق ، تمكنت منهم فلا يستطيعون الخلاص منها . . وفى نظر هذا النوع من الناس ، أن المضى فى طريق الخطأ والضلال ، خير من العودة إلى الحق .

وما يزال الكتاب المسيحيون يثنون على الملك الكامل ، الذى تنازل عن القدس . . بل إن كاتبا كبيرًا مثل دورانت مؤلف موسوعة « قصة

الحضارة » . . يذكر أن أعظم شخصيتين إسلاميتين فى تاريخ الحروب الصليبية ، هما صلاح الدين . . والملك الكامل !

أما مصر ، فقد ظن حكامها أنهم أمنوا جانب الصليبيين ، وصاروا أصدقاءهم وحلفاءهم ، لكنهم ما لبثوا أن رأوا غزوة صليبية جديدة على بلادهم . . وكانت غزوة أشرس وأعنف من الغزوة الأولى على دمياط . . فقد كانت غزوة انتقام ، أعد لها الأوروبيون أسطولا كبيرًا وجيشا كبيرًا، وكان على رأسها ملك فرنسا لويس التاسع ، الذى كان معروفا بتدينه وتعصبه .

جاء الملك لويس ، ومعه جميع نبلاء وفرسان فرنسا . . وجاء معه إخوته الثلاثة ، وجاءت معه زوجته التى كانت أكثر منه تدينا ، واستعدادًا للتضحية بحياتها . وقد نذر لويس نفسه للموت فى سبيل دينه ، فقد أصيب بمرض عضال ، فنذر إن شفى منه ليحاربن فى سبيل الصليب ، فأعد الجيش العرم الذى خرجت فرنسا كلها تودع فرسانه وجنوده ، وحملهم أسطول هائل ، تتقدمه ثلاث سفن تحمل الملك والملكة وعددًا من المحاربين الشجعان . . ورسا الأسطول عند قبرص ، فاحتفى به الناس ، وانضمت إليه جموع أخرى تريد غزو مصر . . ثم لحقت بالأسطول الفرنسى سفن من إنجلترا تحمل كوكبة من الفرسان الإنجليز .

* * *

وعلم حاكم مصر ، الصالح أيوب ، الذى خلف أباه الملك الكامل، بأن الصليبيين يحتشدون فى قبرص . . وقدر أنهم سينزلون دمياط كما فعل أسلافهم من قبل . . فحشد جيشه تجاه المدينة ، وقرر أن يحارب حربا جادة . . فقد جرب أبوه مهادنة الصليبيين ، حتى بلغ به

الأمر حد التفريط . . وها هى ذى النتيجة . . فلابد هذه المرة من حرب وقتال يلقى على الصليبيين درسا لم يتعلموه من سياسة المهادنة والمصالحة .

كان الصالح أيوب نقيض أبيه الملك الكامل ، كان شجاعا جريئًا ، وكان حازمًا إلى درجة القسوة ، وكان لا يتردد فى الإطاحة برءوس من يخالفه من الجنود . . وقد أطاح برءوس الكثير منهم جماعات جماعات ، ولعله ورث هذه الصفات من أمه السودانية ، وكان لون بشرته أقرب إلى السواد ، أما جيشه ، فكان كله من المماليك ذوى البشرة البيضاء . .

ولم ينخلع قلب الصالح أيوب ، عندما تلقى رسالة تهديد من لويس التاسع ، وهو ما يزال فى عرض البحر بعيدًا عن ساحل دمياط . . قال ملك فرنسا فى رسالته : « لو حلفت لى بكل الأيمان . . ولو دخلت على القسوس والرهبان ، تحمل قدامى الشمع طاعة للصلبان ، ماردنى هذا عن الوصول إليك ، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر تحت قيادتى يملئون السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم قادمون عليك بأسياف القضاء » .

ويذكر الملك لويس عدوه ، الصالح أيوب ، بما يجرى فى ذلك الوقت فى الأندلس . . فيقول له إن المسلمين هناك « يحملون إلينا الهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر . . ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء . . ونستأثر البنات ونخلى منهم الديار » . .

ولكن الصالح أيوب لم ينزعج ، ورد عليه برسالة مماثلة ذكر فيها السيوف والرماح ، والجيوش والحصون . ونزل الجيش الصليبى قريبا من دمياط ، فما إن سمع أهلها بذلك ، حتى فزعوا وارتعبوا ، فتركوا ديارهم

ولوا هاربين ، لا يحملون معهم شيئًا مما كانوا يختزنون فى بيوتهم ، من قوات وأسلحة وعتاد . . بل فر حراس المدينة ، وتركوها مفتوحة لأبواب . . فدخلها الصليبيون يوم ٦ يونيو ١٢٤٩ دون قتال ، واستولوا على ما فيها « صفوا عفوا » كما يقول المقريزى .

إن أهل دمياط هؤلاء ، قاوموا الصليبيين فى الغزوة الأولى أربعة عشر شهرًا ، وجرت بينهم وبين الغزاة معارك ، كبدوا فيها العدو خسائر جسيمة فى الأرواح والعتاد . . فهل كانت فترة الصلح والسلام ، الذى دخل فيه الملك الكامل ، فترة استرخاء وتواكل ، أوهمت الناس بأن عهد الحروب قد انتهى ، وأن السلام قد استتب واستقر ، فلم يعدوا أنفسهم لمباغتة كتلك التى حلت بهم وهم نيام ؟

واستولى الصليبيون على دمياط ، وحولوا المسجد إلى كنيسة ، وأقاموا بطريركا فرنسيا للمدينة . . وبدءوا يستعدون للزحف على القاهرة بعد أن رفض لويس فكرة الزحف على الإسكندرية والاستيلاء عليها أولا . .

كان هذا فى شهر يونيو ، وقد اقترب فيضان النيل . . والملك يعرف جيدًا أن الفيضان هو الذى هزمهم فى المرة الأولى ، عندما فتح المصريون السدود على فرع النيل والبحر الصغير ، وحاصرتهم المياه من كل جانب . وقرر أن ينتظر ، حتى ينتهى موسم الفيضان ، ثم يبدأ زحفه إلى القاهرة . .

وفى اليوم الذى بدأ فيه الزحف ، مات الملك الصالح أيوب . . ولكن زوجته شجرة الدر ، تلك المرأة الجريئة التى انحدرت من أصل تركى ، أخفت خبر موته ، حتى لا ينشغل الجيش بهذا عن المعركة التى يجب أن يخوضها بكل قواه . .

وكانت معركة أو سلسلة من المعارك البرية والبحرية ، فقد دخل الصليبيون بسفنهم فى النيل ، فجاء المصريون بسفن كثيرة كانت تتصيد سفن الغزاة ، وتفرقها أو تأسرها . . وخسر الصليبيون ثمانين سفينة ، خسروا ما عليها من مئونة وسلاح . . وحارب الجانبان بكل بسالة وقوة . .

وظهر بين المسلمين فارس عظيم . . ولم يكن محاربا باسلا فحسب ، بل كان قائدا يضع الخطة الحربية المحكمة ، ويدير المعركة ، ويقود الجنود . وكانت هذه بداية تاريخه الفذ ، الذى حفل بأمجاد من البطولة ، مثلما حفل أيضا بكثير من القسوة والشراسة الغاشمة . . هذا هو المملوك « الظاهر بيبرس » ، الذى صار فيما بعد حاكم مصر ، وحاكم الشام ، والبطل الذى صد موجات المغول . .

وتلاحم الجيشان . . الجيش الصليبى يقوده الملك لويس ، والجيش المصرى يقوده الظاهر بيبرس . . وبلغ القتال ذروته عند فارسكور ، حيث حلت هزيمة ساحقة بالصليبيين ، ووقع لويس التاسع أسيرًا ، فاقتادوه إلى بيت الشيخ فخر الدين بن لقمان فى المنصورة . . أما الجيش الصليبى ، فقد وقع كله بين قتلى وأسرى !

وتفاوض المنتصر والمنهزم . . وفرض المسلمون شروطهم ، وهى جلاء الصليبيين عن دمياط ، وخروجهم من مصر جميعا ، ودفع دية باهظة من الذهب ، مقابل إطلاق سراح الملك لويس ومن معه من الأسرى . .

وكانت زوجة الملك لويس فى أثناء ذلك فى دمياط . . وكانت حاملا ووضعت ابنا فى اليوم الذى أسر فيه أبوه . . ولكنها لم تفقد شجاعتها فى أية لحظة . . بل جمعت حامية المدينة ، عندما خشيت أن يسرى إليهم

الخوف والوهن . . وناشدتهم أن يتماسكوا ويترابطوا ، فلم تبق فى أيدى الصليبيين إلا مدينة دمياط ، يفتدون بها ملكهم وأسراهم . .

وكان لهذا الملك خادم بلغ سن الثمانين . . وكان من قبل فارسا مقاتلا . . فجاءت به ، وجثت أمامه على ركبتيها ، وقالت له : أتوسل إليك إذا دخل المسلمون مدينة دمياط أن تأتى بسيفك وتقطع رقبتى ! . . قال لها الرجل المسن : سوف أفعل . . وقبل أن تحدثينى بهذا ، كنت قد قررت أن أفعل أى شىء إلا أن تقعى أسيرة فى أيدى الأعداء . .

وقبل لويس التاسع شروط التسليم . . وخرج الصليبيون أولا من دمياط ، ونزحوا عن مصر . . وبعد ذلك أطلق الظاهر بيبرس سراح الملك الأسير ، فاستقل سفينة اتجهت به إلى عكا . . التى كانت من بقايا المراكز الصليبية فى الشام . .

وبعد سنوات قليلة خرج الظاهر بيبرس من مصر بجيش عرمرم ، يضم أربعين ألفا من الفرسان ومائة ألف من المشاة ، وزحف إلى الشام ، فصفى جيوب الصليبيين فيها ، حتى سقطت جميعا . .

وأخذ الصليبيون يرحلون عن بلاد المسلمين ، ثم طويت صفحة الحروب الصليبية التى دامت قرونين . . وسجل هذا التاريخ الطويل أمجاد أبطال من الجانبين ، وكان أعظم الأبطال جميعا ، وأبقاهم ذكرًا على مدى التاريخ ، هو صلاح الدين الأيوبى ، الذى أقام من أنقاض الخلافة العباسية فى بغداد ، وأنقاض الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، إمبراطورية إسلامية عظيمة ، تضم مصر والشام وفلسطين والعراق والحجاز واليمن ، وماوراءها من جبال طوروس فى الشمال إلى بلاد النوبة والسودان فى الجنوب .

وكان من أغرب الشخصيات ، التى أظهرتها الحروب الصليبية

وتقلباتها ، الملك الكامل الأيوبى . . الوريث الأكبر فى مملكة صلاح الدين . . وورث منها سلطان مصر ، وورث بيت المقدس . . وحارب الصليبيين حين اضطر إلى القتال ، فلما جاءه النصر عليهم ازداد خوفا منهم ! . . وسعى إليهم ، وقدم عرضا لا يقدمه إلا المهزوم المسحوق . . وتنازل لهم عن القدس الشريف ، مقابل وعد بذلوه له ، بألا يحاربوه فى مصر بعد اليوم . . فأخذوا القدس ورفعوا عليه الصليب من جديد . . وبعد تسع سنوات ، عادوا فغزوا مصر من جديد .

وكانت قصة الملك وعواقبها عبرة من عبر التاريخ . . فقد جرت وراءها خاتمة هزيلة لانتصارات الأسرة الأيوبية وأمجادها . . وكان حكم التاريخ عليه حكما عادلا ، فلم يحتفظ له إلا بصفحة باهتة ومشوبة بالسواد .

وانتهت تلك الحروب الصليبية التى دامت قرنين من الزمان .

بدأت على وجه التحديد سنة ١٠٩٦ ، حين خرجوا من أوروبا ، ووصلوا الشرق ، واستولوا بعد ثلاث سنوات على بيت المقدس ، وأقاموا مملكة القدس الصليبية .

وانتهت عمليا فى سنة ١١٨٧ ، فى معركة حطين ، التى قضى فيها صلاح الدين على قوة الصليبيين . . ثم استرد بيت المقدس .

ولكن فلول الصليبيين فى الشام ، وما جاءها من إمدادات ، ثم قواتهم التى غزت مصر مرتين ، أطالت أمد الحرب مائة سنة أخرى إلى أن نزحوا عن الشرق نهائيًا سنة ١٢٩١ .

ثم مضت ستة قرون ، وأخذ الأوروبيون يعودون إلى الشرق فى صورة جديدة ، هى صورة الاستعمار الأوروبى . .

وعندما شبت الحرب العالمية الأولى ، عادوا بجيوش الاحتلال . . ودخل الإنجليز بيت المقدس سنة ١٩١٤ ، وحمل الإنجليز معهم نذر الغزوة الصهيونية ومقدماتها . وبعد ثلاث سنوات ، أصدرت حكومتهم وعد بلفور تتعهد فيه بمساعدة اليهود على إقامة وطن قومى لهم فى فلسطين . . ثم فتح الإنجليز أبواب فلسطين للهجرة اليهودية . . ثم تم الغزو الصهيونى للعالم العربى .

ودخل الجيش الفرنسى دمشق . . وكان أول ما فعله قائد الجيش ، أن ذهب إلى قبر صلاح الدين الأيوبى ، ووقف أمامه ، وقال : « لقد عدنا . . اسمعنى ياصلاح الدين . . لقدعدنا » .

الفصل الرابع

الهجمة الصهيونية



عاش اليهود فى القدس سبعين سنة
وعاش فيها العرب أربعة آلاف سنة !

لو كان فى مدينة القدس ، وقت الفتح الإسلامى ، معابد أو هياكل أو آثار يهودية ، لما كان هناك ما يدعو جنرالات إسرائيل ، أمثال « موشى ديان » و « يادين » و « وايزمان » و « هرتزوج » إلى أن يتحولوا إلى علماء آثار ، وهواة حفريات . . ينقبون تحت الأرض ، فى القدس وما حولها ، يفتشون عن معابد يهودية قديمة ، أو هياكل يهودية بائدة . . دون أن نسمع حتى الآن أنهم وجدوا شيئًا !

لو كان فى القدس ، عندما دخلها المسلمون فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة ، معبد أو هيكل يهودى ، لأمر أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » بالإبقاء عليه ، بل لأمر بصيانته ورعايته . . ولأمر بالمحافظة على نقوشه ومحتوياته ، مثلما أمر بالمحافظة على كنائس المسيحيين ومزاراتهم ، وما فيها من صور وصلبان وتماثيل .

فلم يكن هناك سبب دينى - والدين هو الذى كان يحدد خطى المسلمين وأعمالهم فى ذلك الزمان - يدعو إلى أن يفرق المسلمون بين كنائس المسيحيين ومعابد اليهود . . فهؤلاء وأولئك من أهل الكتاب ، وسوى بينهم الإسلام فى الحقوق والواجبات . . فإكراههم على الدخول فى

الإسلام محظور ، وحقهم فى أن يعيشوا فى المجتمع الإسلامى سالمين آمنين مكفول . . هذا حق لليهود وللمسيحيين على السواء ، تقابله واجبات ، أو واجبان على وجه التحديد . . هما واجب « الجزية » . . وواجب الامتناع عن إحداث فتنة عامة فى المجتمع الإسلامى ، لكى يعيشوا هم والمسلمون جنبا إلى جانب متفاهمين ومتعاونين . .

* * *

وقد بقيت مدينة القدس من قبل الفتح الإسلامى ، وحتى يومنا هذا، حافلة بالكنائس والمزارات والمقدسات المسيحية . . رعاها المسلمون أكمل وأفضل رعاية ، عند الفتح الإسلامى وبعده بوقت طويل . . بل إن التاريخ شاهد صدق ، على أن المسلمين زادوا عليها ، فوسعوا فى أرضها وأعلوا مبانيها ، وأنفقوا فى سبيل هذا مالا كثيرًا من خزانة الدولة الإسلامية .

وعندما مر بالمسلمين ، بعد هذا ، عصر من الضعف والتخلف ، وما يولده هذا وذلك من التعصب الدينى . . وخاصة فى العصر الذى انتقل فيه الحكم الإسلامى من الأيدى العربية إلى أيدى عناصر انحدرت من المغول والشركس والأتراك ، وكانت حديثة عهد بالإسلام . . عندما مر بهم ذلك العصر ، فإن حكامهم لم يحسنوا معاملة رعاياهم من المسيحيين فى القدس أو فلسطين أو بعض البلاد الإسلامية الأخرى ، منحرفين بهذا عن مبادئ الإسلام التى تدعو إلى السماحة والتسامح ، إلا أن التاريخ يشهد أيضًا بأن أيدى المسلمين لم تمتد إلى هدم الكنائس أو العبث بما فيها من صلبان ومقدسات .

* * *

ونعود إلى قصة « عمر بن الخطاب » ، عندما دعاه الأسقف

«صفرنيوس» إلى جولة فى مدينة القدس ، ليشاهد معالمها وآثارها . . نعرف هذه القصة جيدًا . . ولكن لا بأس من تكرارها فى هذاالمقام ، لنرى أن ما فعله « عمر » رضى الله عنه تجاه الكنائس المسيحية ، كان لابد فاعلا مثله تجاه المعابد اليهودية ، لو أنه كانت فى القدس يومذاك معابد أو مقدسات يهودية .

القصة التى نشير إليها ، هى صفحة من صفحات التاريخ الذى سجله المؤرخون المسلمون ، وكذلك المؤرخون المسيحيون واليهود . . تقول لنا ، إنه بينما كان « عمر بن الخطاب » والأسقف « صفرنيوس » يتجولان فى مدينة القدس ، دخلا كنيسة القيامة ، وهى الكنيسة المقدسة عند المسيحيين ، إيمانا منهم بأن جثمان المسيح عليه السلام دفن فيها ، ثم رفعه الله إلى السماء . . وأدرك « عمر » ومن معه من المسلمين موعد الصلاة ، فطلب إليه أسقف المسيحيين أن يصلى فى الكنيسة . . فاعتذر « عمر » . . اعتذر للأسقف بأنه لوصلى فى الكنيسة ، فقد يجىء المسلمون من بعده ، ويقولون إن « عمر بن الخطاب » صلى هنا ، فيتخذونها مسجدا ، ويخرجون النصارى من كنيستهم ، مخالفين بهذا عهد الأمان الذى أعطاه خليفة المسلمين للمسيحيين من أهل القدس .

خرج « عمر » من الكنيسة ، وصلى فى مكان قريب . . وفى هذا المكان أقام عمر مسجدًا بسيط البناء ، مثل مسجد الرسول فى المدينة يوم أقيم .

* * *

قال بعض المستشرقين فيما بعد ـ أى بعد أن انقضى عصر التسامح الدينى ، وجاءت عصور التعصب الدينى المغرض الذى أخذ صورة الحرب الصليبية مرة ، وصورة الاستعمار مرة ، وصورة الاستشراق المغرض

ثالثة ـ جاءت تلك العصور ، فقال بعض المستشرقين إن « عمر بن الخطاب » لم يصل فى الكنيسة ابتعادًا عما فيها من صلبان وصور وتماثيل، وإنه اعتذر بما اعتذر به لكيلا يجرح شعور الشيخ الطيب أسقف المسيحيين .

كلام المستشرقين هذا لغو من القول ، ولا وزن له ولا أساس . . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يصلى فى الكعبة قبل الهجرة وبها ما بها من الأصنام والأوثان . . وكذلك المسلمون القلائل ، الذين تشجعوا بعد أن أسلم وانضم إليهم « عمر بن الخطاب » . . أخذوا يصلون جهارا فى الكعبة ، ومن حولهم الأصنام والأوثان . . وبعد الهجرة بسبع سنوات، جاء الرسول من المدينة ومعه ألفان من المسلمين ، فطاف وطافوا بالكعبة ، التى تحيط بها وتتدلى عليها الأصنام من كل جانب . . ثم علا « بلال » سقف الكعبة ، وأذن لصلاة الظهر ، فصلى « محمد » إماما لألفين من المسلمين صلاة المؤمنين الموحدين . . وهل تحول الصور والتماثيل ، وما شئت مما يصنع الإنسان ، بين قلب المؤمن الخاشع وبين الله الواحد الأحد ؟

و « عمر بن الخطاب » نفسه صلى فى إحدى كنائس القدس . . صلى فى كنيسة المهد فى بيت لحم . . وفيها ما فى غيرها من الكنائس من صور وتماثيل وصلبان . . ورأى « عمر » أن يحفظ الكنيسة لأهلها المسيحيين ، فكتب عهدًا خاصا بكنيسة المهد ، قضى فيه بألا يدخلها من المسلمين أكثر من شخص واحد فى المرة الواحدة . . وحتى الساحة التى أمامها لا يسمح بالصلاة فيها لأكثر من مسلم واحد فى المرة الواحدة .

وقد ظلت هذه الكنائس المسيحية قائمة فى مدينة القدس، منذ الفتح الإسلامى وحتى يومنا هذا ، لم يصبها بسوء من قريب أو بعيد حكم

إسلامى استمر أربعة عشر قرنا ، أو على الأصح ثلاثة عشر قرنا ، فقد قامت فى القدس « مملكة مسيحية صليبية » زهاء قرن من الزمن ، « من سنة ١٠٩٩ إلى سنة ١١٨٧ ميلادية » . . وعندما استردها المسلمون ودخلها صلاح الدين ، دخلها دون أن تراق قطرة دم واحدة . . تماما مثلما دخلها من قبل عمر بن الخطاب . .

* * *

قامت ، فى القدس ، مساجد المسلمين جنبا إلى جنب مع كنائس المسيحيين ، فكان القدس الشريف نقطة التقاء بين العالم الإسلامى فى أوج الحضارة الإسلامية ، والعالم الأوربى فى أوج سيطرة الكنيسة على ملوكه وأمرائه وشعوبه . . بل كان القدس الشريف هو أول حلقة اتصال بين المشرق والمغرب فى ذلك العصر . .

قرأت فى كتاب عنوانه « القدس » لمؤلف فرنسى اسمه « ميشيل جوان لامبرت » ما يلى : إن حكام المسلمين فى بغداد ، وافقوا على أن يسافر راهب من القدس اسمه « زكريا » ، حاملا معه مفاتيح كنيسة القيامة ، ليسلمها للإمبراطور « شارلمان » . وقد سافر الراهب ، وسلم مفاتيح الكنيسة على سبيل التهنئة من هارون الرشيد ، خليفة المسلمين ، إلى «شارلمان » ، بمناسبة تتويجه إمبراطورًا على أوروبا . .

ويقول المؤلف : منذ ذلك الوقت ، بدأ « شارلمان » فى إنشاء مستوطنات مسيحية أوروبية فى « القدس » . . وكان هذا العمل يثير خيال الشعراء فى أوروبا فينشدون القصائد . . وأضافوا من عندهم قصة غير صحيحة وهى أن « شارلمان » نفسه ذهب إلى القدس . .

ذلك كان موقف المسلمين من الكنائس ، والمقدسات المسيحية ، منذ دخول القدس ، وعلى مدى قرون عديدة وعصور طوال . . فبقيت

قائمة مرعية حتى يومنا هذا . . فلماذا إذن لا توجد فى القدس معابد ولا هياكل ولا آثار يهودية ؟ . . ولماذا يتعب جنرالات إسرائيل أنفسهم ، فيتحولوا إلى علماء آثار ، وإلى هواة حفريات ؟ فضلا عما تحشده «الجامعة العبرية » وجامعات أمريكية وأوروبية من علماء وغير علماء . . كلهم ينقبون تحت أرض القدس الشريف عن معبد « داود » ، أو عن هيكل سليمان ، أو عن قبر « يوسف » . . فما وجدوا شيئا حتى الآن !

ما من أحد من المؤرخين ـ بمن فيهم المؤرخ اليهودى الشهير «يوسفوس » ـ الذين كتبوا تاريخ القدس بالتفاصيل ، قد ذكر أو ادعى أن المسلمين هدموا فى يوم من الأيام معبدًا يهوديًا ، أو طمسوا أثرًا يهوديًا ، أو استولوا على كنيس يهودى وجعلوه مسجدًا لهم . . وهذا دليل ما بعده دليل ، على أنه لم يكن فى القدس عندما دخلها المسلمون معابد أو هياكل يهودية ، وأن القدس لم يكن مدينة يهودية عندما فتحها المسلمون . . وإنما كان مدينة أهلها عرب من نسل كنعان . . وكانوا يتكلمون اللغة العربية . . ويدينون بالديانة المسيحية .

وهنا نتساءل : ألم يدخل اليهود مدينة القدس ؟ ألم يقيموا فيها مملكة لهم ردحا من الزمان ؟

والإجابة التاريخية على هذا ، هى أن بنى إسرائيل دخلوا القدس فعلا . . وأقاموا فيه مملكة لهم فعلا . . وكان هذا فى عهد « داود » وابنه «سليمان » عليهما السلام .

وقد عاشت هذه المملكة الإسرائيلية فى القدس ، سبعين سنة . . نعم، سبعين سنة فقط . . وهى فترة قصيرة جدا من تاريخ القدس ، الذى يضاهى فى طوله تاريخ مصر ، أقدم بلاد العالم . . والذى يتكون من مراحل طويلة ، كل مرحلة منها دامت مئات السنين . . فبعد

المرحلة العربية الأولى ، التى جاءت فيها قبائل كنعان العربية ، واستوطنت فى فلسطين وزرعت أرضها وبنت فيها القرى . . وهى مرحلة طويلة استمرت زهاء ألفين من السنين . . تعاقب على غزو فلسطين ، وحكمها ، والإقامة فيها ، أمم عديدة . . هى أمم الأشوريين والبابليين والفرس والمصريين واليونان والرومان . . وقد أقام كل من هؤلاء مرحلة تاريخية ، أطول من السنوات السبعين التى عاشها بنو إسرائيل فى القدس . . دون أن يدعى أحد منهم ما تدعيه إسرائيل ، فى زماننا هذا ، من أن لها حقها التاريخى فى القدس وفى فلسطين جميعا !

بدأت تلك السنوات ، عندما دخل النبى « داود » القدس فى سنة ١٠٥٠ قبل الميلاد ، أو حول هذا التاريخ . . ولم يبن « داود » معبدًا ولا هيكلاً فى القدس . . فقد جاء فى العهد القديم ، فى سفر الأيام الأول ، ما يلى : « قال داود لسليمان : يابنى قد كان فى قلبى أن أبنى بيتا لاسم الرب إلهى . . فكان إلى كلام الرب قائلاً : قد سفكت دماء كثيرة ، وعملت حروبا عظيمة ، فلا تبن بيتا لا سمى ، لأنك سفكت دماء كثيرة على الأرض أمامى . . هو ذا يولد لك ابن اسمه يكون سليمان . . هو يبنى بيتا لاسمى . . »وظل « داود» يؤدى صلواته فى خيمة من الشعر.

وبنى « سليمان بن داود » عليهما السلام المعبد . . وكان معبدًا صغيرًا، ملحقا بالقصر الملكى ، وبابه مفتوح من جهة القصر ، لأنه خاص بالملك وحاشيته وزوجاته ، أو بعض زوجاته ، لأن بعضهن الآخر لم يكن على دين « سليمان » وكن يتعبدن عبادتهن الخاصة . . ومنهن زوجته المصرية ابنة فرعون مصر التى كانت على دين آبائها .

* * *

هذا المعبد يسمونه الهيكل الأول . . ولم يدم هذا المعبد طويلا ، لأن

أولا « داود » و « سليمان » قد نشبت بينهم المنازعات والمناوشات ، فلم يستمروا فى حكم القدس وفلسطين طويلا . . إذ أغار عليها المصريون من جانب ، والأشوريون من جانب ، وصارت المنطقة كلها منطقة معارك وحروب . . خربت مدنها وشتت سكانها . . ثم ظهرت قوة كبيرة فى الشرق هم البابليون . . فاقتحموا المدينة سنة ٥٨٧ ق . م . . ودخلها « نبوخذ نصر » ملك بابل ، فأحرق الهيكل ، وقوض أركانه وجدرانه ، وسبى جميع الرجال والشبان ، من كان منهم قادرًا على حمل السلاح ، أو كان ماهرًا فى صنعته أو حرفته . . ونقلهم جميعًا إلى بلاده . .

وبقيت « أورشليم » مدينة مخربة ، تحت حكم البابليين ، فترة من الزمن . . ثم ظهرت قوة الفرس وملكهم « قورش » . . فأغار على «أورشليم » ، وانضم إليه أشتات اليهود ، انتقاما من البابليين . . فسمح لهم بالعودة إلى « أورشليم » ، وبنى لهم فيها معبدًا ، وهذا ما يسمونه : الهيكل الثانى .

وكما أحرق ودمر الهيكل الأول ، أحرق ودمر الهيكل الثانى . . وذلك عندما جاء الإغريق ، وحكموا « أورشليم » .

جاء « الإسكندر المقدونى » أولا ، وكان شابا مستنيرًا تتلمذ على «أرسطو » وفلاسفة اليونان . . وكان يحلم بأن ينشر حضارة اليونان فى بلاد الشرق . . ولهذا استقبل فى البلاد التى فتحها بشىء من الترحيب . . حدث هذا عندما جاء إلى مصر ، وحدث مثله عندما وصل جيشه إلى «أورشليم » . . فوجد أحبار اليهود فى انتظاره مرحبين . . وأسرفوا فى الترحيب ، فأعلنوا أن كل مولود يهودى فى تلك السنة يسمى «إسكندر» .

وقد لاحظت ، عندما أقمت فى مدينة « نيويورك » عدة سنين انتشار اسم « الإسكندر » بين اليهود هناك . . ولم أكن أعرف حينذاك ، لماذا

يتسمى اليهود باسم يوحى بأن صاحبه مسيحى . . ثم قرأت فيها بعد ، بأن هذا يرجع إلى أيام « الإسكندر المقدونى » ودخوله « أورشليم » ، وممالأة اليهود له وإطلاق اسمه على أولادهم . .

ولم يدم الود بين اليونان واليهود طويلا . . فجاء أحد خلفاء الإسكندر وأذل اليهود . . هدم الهيكل . . وأقام مكانه تمثالا لرئيس آلهة اليونان ، وأمر بأن تذبح فى هذا المعبد الخنازير . . وحظر على اليهود الاختتان . . وأجبرهم على العمل يوم السبت . . وكانت عقوبة من يخالف هذا هى الإعدام .

وظل الأمر هكذا ، حتى دخل الرومان مدينة القدس . . وكان هذا سنة ٦٣ قبل الميلاد . . ورحب اليهود بالرومان ، مثلما رحبوا من قبل باليونان . . فأقام الحاكم الرومانى « هيرودس » معبدًا كبيرًا يسمونه الهيكل الثالث .

لم يكن ذلك الهيكل الثالث معبدًا يهوديًا ، وإن كان يسمح لليهود بدخول بعض أرجائه . . بل كان معبدًا رومانيًا ، بنى على الطراز الرومانى، وعلى مساحة تبلغ عشرين فدانًا . . وكانت الألعاب الأولمبية ومسابقات الأولمبيات تقام به ! وكانت الحفلات الساهرة تقام به تكريما لضيوف المدينة من الكبراء . .

ثم ساءت العلاقات بين اليهود والرومان . . فأمر الإمبراطور الرومانى « نيرون » ، بأن تحرق « أورشليم » كما أحرقت روما نفسها . . وتم هذا على يد أحد القواد الرومان ،الذى أشعل النار فى المدينة ، فظلت مشتعلة شهرًا كاملا . . وأمر بهدم الهيكل الثالث ، فلم يبق منه إلا حائط . . ذلك هو حائط المبكى . . وذبح جنوده كل من وجدوه فى المدينة من اليهود . . وكان هذا فى سنة ٧٠ بعد الميلاد .

وقرر الحاكم الرومانى إلغاء اسم « أورشليم » . . وأطلق على المدينة اسما جديدًا ، فسماها « إيليا كابيتولينا » . . وظلت تعرف بهذا الاسم، حتى دخلها المسلمون سنة ٦٣٦ ميلادية . . لهذا نجد أن العهد العمرى نص على أنه عهد أمان لأهل إيلياء .

هذه إلمامة سريعة جدا بتاريخ مدينة القدس ، أو بعلاقة اليهود بالقدس ، ومنها نتبين أن آخر معبد يهودى . . أو آخر معبد يسمح لليهود بدخوله ، وبممارسة طقوسهم فى بعض أرجائه . . هو ذلك الهيكل الثالث ، الذى أحرقه الرومان وهدموه ونهب جنودهم ما فيه . . فى سنة ٧٠ ميلادية ، أى قبل دخول المسلمين بأكثر من خمسة قرون ونصف قرن ! . .

* * *

فلما دخل المسلمون مدينة القدس . . ولماتجول « عمر بن الخطاب » مع أسقف المدينة « صفرنيوس » ، ليرى معالم المدينة . . لم يكن هناك معبد ولا هيكل يهودى واحد . . فقد اندثر هذا كله منذ قرون وقرون . . ولم يسأل « عمر بن الخطاب » عن شىء من آثارهم البائدة ، وإنما سأل عن « الصخرة . . صخرة يعقوب » . . لأنه لم يكن من الممكن إحراق الصخرة أو هدمها . . وإنما اكتفى الرومان ، واكتفى أهل القدس من المسيحيين ، بأن طمروها تحت أكوام من القمامة . .

هذا الأثر اليهودى الوحيد ، الذى لم تمتد إليه أيدى من حكموا القدس بالإحراق والتدمير .

سأل عنه أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » . . ودله « كعب الأحبار» على مكانه ، وأشار عليه أن يقيم مسجدًا للمسلمين متجها إلى

الصخرة . . فنهره عمر قائلا : أمرنا بالكعبة ولم نؤمر بالصخرة . . وأقام المسجد ، فى مكان آخر ، غير بعيد عن « صخرة يعقوب » .

أما عن الصخرة . . فلنتذكر ، ماذا فعل خليفة المسلمين « عمر بن الخطاب » ، وهو ما نعرفه جميعا ، وما ينبغى أن نستعيده فى هذا المقام .

لقد رأى الناس يوم الفتح الإسلامى مشهدًا عجبا !

رأوا أمير المؤمنين وخليفة المسلمين يشمر عن ساعديه ، ويأمر أصحابه أن يفعلوا مثلما يفعل ، فيزيح بيديه ما على الصخرة من القمامة ويلقى بها بعيدًا . . مازال هو وأصحابه بالصخرة حتى أنزلوا كل ما عليها . . وظهرت « صخرة يعقوب » مرة أخرى على سطح الأرض ، وصار المسلمون ، على مدى أربعة عشر قرنا ، يتبركون بالصخرة فى القدس مثلما يتبركون بالحجر الأسود فى ركن الكعبة . . وعليها أقام الخليفة « عبد الملك بن مروان » القبة الرائعة ومن حولها بنى المسجد العظيم .

لم تكن القدس إذن ، يوم فتحها المسلمون ، مدينة يهودية . .

ولم يكن فى القدس ، حين دخلها المسلمون ، معابد ولا هياكل يهودية . . بل لم يكن فى القدس ، فى ذلك الوقت ، سوى أقلية ضئيلة جدا من اليهود . . يكرههم ويمقتهم أهل المدينة الذين كانوا يدينون بالمسيحية . . ويضطهدهم الرومان ، الذين كانوا يحكمون القدس ، ويحكمون فلسطين والشام ، رغم أن من بين اليهود من كانوا يعملون عملاء وجواسيس للحكم الرومانى . . ويعيشون بما يمارسونه من الربا والاتجار فى الذهب والفضة . . ولهذا اشترط المسيحيون على المسلمين ، وهم يسلمونهم المدينة ، ألا يسمحوا لليهود بالدخول إليها !

ولكن . . تجىء هذه الأيام . . وتتعالى أصوات اليهود فى أنحاء

العالم، بكل ما تتيحه لهم وسائل الدعاية والإعلان من أساليب التضليل والافتراء . . فنقرأ ونسمع ونرى كل يوم من يقول : إن المسلمين أخذوا القدس ، وأخذوا فلسطين من اليهود ، واستولوا على هذه البلاد ، وحكموها قرونا عديدة . . ثم نهض اليهود من سباتهم ، واستبدلوا بضعفهم القوة والسلاح ، فاستردوا من المسلمين بلدهم اليهودى ومدينتهم اليهودية !

ويصدق العالم هذه الدعاية . .

بل إن فى العالم العربى والعالم الإسلامى ، من يصدق هذه الدعاية . .

وهى ليست مجرد دعاية . . بل إنها أكذوبة من أكبر الأكاذيب . . ولكن التكرار والإلحاح يوما بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، جعلا الأكذوبة الكبرى تبدو وكأنهاحقيقة ، أو كأنها شىء قابل للتصديق . . وللأسف، فإننا نجد العالم الإسلامى ساكنا أو مستكينا ، وهو يقرأ بعينيه ويسمع بأذنيه ، أن فى إسرائيل جماعة أو جماعات أرادت أن تقصف المسجد الأقصى بالقنابل وتهدمه . . ولم يمنعهامن هذا إلا أن انهيار المسجد الأقصى قد يؤدى إلى سقوط حائط المبكى الثالث ، الذى لم يبنه اليهود و إنما بناه الرومان !

* * *

رقم الإيداع ٩١٤٨ / ٩٨
الترقيم الدولى I.S.B.N.977 - 01 - 5799 - 6





ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبه الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك



بسعر رمزى
جنيه ونصف

